التفسير الموضوعي
للقرآن الكريم

تأليف

الدكتور
أحمد السيد الكومي
أستاذ التفسير بكلية أصول الدين
بالقاهرة

الدكتور
محمد أحمد يوسف القاسم
رئيس قسم التفسير بكلية أصول الدين
بالقاهرة

الطبعة الأولى

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ۝ الرحمن الرحيم ۝
مالك يوم الدين ۝ إياك نعبد وإياك
نستعين ۝ إهدنا الصراط المستقيم ۝ صراط
الذين أنعمت عليهم ۝ غير المغضوب عليهم
ولا الضالين ۝ آمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله ، الذي أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على كل دين سواه ، فكانت بعثته رحمة للعالمين . صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

وبعد : فإن كتاب الله تعالى أكبر هاد إلى الطريق القويم قال الله فيه : (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) .

(يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) .

قد جمع الله فيه أشتات الحكمة ونواميس الحياة الصحيحة ، من استمسك به نجا ومن أعرض عنه فقد هوى ، فهو السعادة الشاملة والنعمة الكاملة ، وليس بين المؤمن وإدراكه سعادة الدنيا والآخرة إلا أن يقرأ كلام الله ويتدبره ويعمل به ، فيحظى بالمتعة الروحية والهناءة الدائمة ، وتنتظم حياته الصحيحة وتحسن صلاته بربه وعلاقته بالعالم .

فالقرآن دستور عادل صالح لتنظيم حياة الأفراد والجماعات والأمم . وهذا هو سر خلوده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولذلك كان هو المعجزة الدائمة لرسول الله ﷺ ، وكل سورة بل كل آياته آيات بينات ، وشواهد ناطقات على أنه أعدل قانون عرفته البشرية ، يسمو بالإنسان

إلى أوج العز والكمال ، كما أنها أدلة واضحة على أن (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) .

ولما كان التفسير الموضوعى بحثاً من أنواع التفسير التى هى نهج الدارس للقرآن الكريم ، وذلك النوع من البحث حديث فى سلوكه جديد فى موضوعه ، وهو من الأهمية بمكان عظيم حيث كان مبرزاً للنواحى القرآنية التى من أجلها نزل القرآن الكريم ليكون هداية للناس فى أمور الدنيا والآخرة ، وحيث نريد معالجة ذلك النوع نذكر مقدمة له أولا . ثم نعرض لما نستهدفه ونوفق إليه من موضوعاته ثانياً . فنقول :

التفسير هو علم من العلوم التى تتصل بالقرآن الكريم من حيث إنه يبين مراد الله تعالى بذلك القرآن الذى نزل على سيدنا محمد ﷺ ، وذلك الذى يوصل إليه هذا العلم لهذا القرآن إنما هو بقدر ما تصل إليه القوة المدركة للبشر ، وهناك من سبيل للجزم بأن ما يصل إليه إنسان من معنى القرآن أن ذلك هو مراد الله تعالى قطعاً ، ولكن البحث حول ذلك المراد مداه أن يصل إلى ظن قوى وإدراك راجح .

وحيث إن مفهوم التفسير يدور حول بيان المعنى المراد لذلك اللفظ كان لزاماً على من يسلك السبيل إلى التفسير أن يكون ما يذكره من المعنى للفظ مستلزماً لذكر اللفظ أولا وبيان معناه ثانياً ، لأن التفسير بمثابة الترجمة عن ذلك اللفظ الذى جاء به القرآن بلفظ آخر يكون أيسر للفهم وأبين للمعنى من نفس اللغة . أما الترجمة فهى بيان معنى اللفظ بلفظ آخر من لغة أخرى وكما لابد للمترجم من متابعة لفظ الأصل لابد للمفسر من ذلك اللفظ وبيانه بلفظ آخر .

وإذا وصلنا إلى هذه النتيجة كان المفسر للقرآن متابعاً لألفاظه وجمله بياناً لمفرداتها ثم جمعاً لتراكيبها، ومن هذين المقصدين وذينك الغرضين يصل الإنسان إلى المعنى المراد من تراكيب القرآن الكريم.

وإذا كان للقرآن ترتيب من حيث التلاوة ونظم من حيث الكتابة، وكان ذلك الترتيب وهذا النظم له اعتبار من التعبد بتلاوته وحصول الثواب من قراءته درج المفسرون من قديم الزمان للقرآن على متابعة ألفاظه وجمله متابعة لا تخرجه عن نظمه فى التلاوة ولا عن وضعه فى المصحف، بل إنهم حرصاً على ذلك النظم وتدعيما لذلك الترتيب كان من جملة أبحاثهم التى ارتكبوا متنها ومضوا وراء تحقيق أهدافها التفتيش عن إبراز المناسبات والكشف عما عساه أن يكون من تلك الارتباطات بين آى القرآن بعضها مع بعض فى سورها، وعن السور بعضها مع بعض فى جملتها، ومن جهة تعلق سابقها بلاحقها ومتأخرها بمتقدمها، بل إنهم كثيراً ما يذكرون أن بيان المقصود من اللفظ لا يكون متجلياً إلا بمعرفة السياق والسباق حتى يشع السابق على اللاحق بضوء يكشف عن غامضه، وحتى يستوجب اللاحق للسابق نظرة يستشف ما حال دونه وحجب غضونه.

غير أن المفسر للقرآن الكريم على ذلك المنهج تارة يكون متمهلا ممعناً، وتارة يكون مسرعاً عاجلا مجملا.

ومن البديهى لدارس القرآن بل والتالى له أن يعلم من الآيات المتفرقة فى سوره والمنتشرة فى أنحائه ما يكون متعلقاً بموضوع واحد. وتكون تلك الآيات متعددة فى أمكنتها من القرآن موزعة فى سوره، وهى مع تعددها وتفرقها متحدة

الموضوع مشتركة فى نوع البحث ، لكن النظم القرآنى على الترتيب الإلهى استوجب توزيعها لذكرها فى مناسباتها ، واستلزم تفريقها حتى يكون الغرض لها عند الحاجة إليها وعند وجود الدافع إلى ذكرها . ومن ذلك مثلا ، ما يتعلق بالخمر فى القرآن الكريم المكى من سورة النحل فى قوله تعالى : (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً) وفى المدنى فى كل من البقرة والنساء والمائدة فى قوله تعالى : (ويسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما) - (يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ... الآية) - (يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه . الآية) وغير ذلك كثير كالجهاد مع الكفار والدعوة إلى الله تعالى ، والنكاح ، والطلاق ، والقصص الذى يتعلق بالأنبياء .

ولعل مما يستوجب ذلك التفرق للآيات ذات الموضوع الواحد ما يكون من أسباب النزول لكل جزء من أجزاء ذلك الموضوع كالآيات المتعلقة بمسلك الرسول ﷺ ودعوته كقوله تعالى : (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية) حين قالوا : لا هم له إلا النساء .

وكقوله تعالى : (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق) حين قالوا : (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق . . . أو يكون من التدرج فى التشريع كقوله : (وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله) ثم قوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون) ثم

قوله تعالى : (فإن تبتم فلكم رءوس أموالكم) .. أو تكرار التنبيه حتى ترسخ العقيدة أو تكون الخلق كالآيات المتعلقة بالألوهية وصفاتها ، والآيات التى تتعلق بالصبر والحلم والعفو . ومن ذلك مايكون مستوجباً الخوف تارة والرجاء تارة أخرى كالآيات التى تتعلق بالوعد والوعيد ، أو ما يكون تكراره لإيراد المعنى الواحد بعبارات مختلفة وأساليب متغايرة ، ومن ذلك أسلوب القرآن فى القصة الواحدة ، وهذا كثير فى القصص القرآنى حيث تتكرر القصة الواحدة فى أماكن كثيرة أو ما يكون من أجل مناسبة لجزء من الموضوع فى مكان ولجزئه الآخر فى مكان آخر لمناسبة أخرى ، أو لتوارد المعانى المختلفة فى المكان الواحد على قلب التالى للقرآن فيتعظ ويزدجر بما توارد على قلبه معنى ونطق به لفظاً ، كقوله تعالى : (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين)

وهكذا نجد القرآن الكريم فى المكان الواحد يتنوع وهو مخبر ومبشر وآمر وناه إلى غير ذلك .

فبملاحظة ترتيب التلاوة ورسم المصحف وجد نوعان من التفسير هما : التفسير التحليلى والإجمالى . وبملاحظة إتحاد الموضوع الواحد لجملة من الآيات المتفرقة التى يتجه الناظر فى القرآن إلى جمعها وإمعان النظر فيها حتى يرتب منها أجزاء ذلك الموضوع وجد نوع ثالث من التفسير وهو : التفسير الموضوعى . وعلى ذلك فتفسير القرآن ثلاثة أنواع . وهناك نوع آخر وهو : التفسير المقارن .

النوع الأول : أن يمضى المفسر فى شرحه للقرآن مع النظم القرآنى على

ما هو موجود فى المصحف آية بعد آية وسورة بعد سورة متتبعاً معانى المفردات الألفاظ فى شرحها، ذاكراً ما تضمنته المعانى فى جملها وما ترمى إليه فى تراكيبها منقباً عن المناسبات بين مفاصلها، ذاكراً وجه الربط بين مقاصدها مستعيناً على الوصول إلى ما تهدف إليه، وتدل عليه بذكر أسباب النزول وما نقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم فى ذلك، أو عن الصحابة والتابعين مازجاً ذلك تارة بما تستنبطه قريحته، وتمليه عليه ثقافته، وتارة بالأبحاث اللغوية .

وذلك النوع من التفسير يختلف فيه أصحابه بين مطنبين مطيلين، وموجزين مقصرين، كما يختلفون فى منهجهم ويتنوعون فى مشربهم، فمنهم - وهم الباحثون الأولون - من التزم فى تفسيره ما كان منقولا عن السلف مازجاً بين ما نقل عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين، وقد حرم على نفسه أن يأتى بمعنى من عنده مستحدث، وأسرف فى ذلك حتى وضع الحواجز بين العقل والقرآن ومنع غيره من التفكير فى القرآن واتجاهاته وحرم القرآن من أن تبرز مكنوناته، وأن يفيض على العقول بكشف مستوراته، وقد فاته أن ذلك القرآن نزل ليكون مورد كل عصر ومعين كل مصر ومهبعاً واسعاً للفكر ومجالا فسيحاً للنظر .

ومن المفسرين المتقدمين من أفسح لنفسه المجال فى أن يكون مؤرخاً قصصياً يشبع نهمته من البحث التاريخى ويملأ رغبته من الجانب القصصى، غير أن بعض هؤلاء أسرف فى ذلك وحشا تفسيره بالقصص الذى لا يسلمه عقل وليس له مستند صحيح من نقل . هؤلاء كانوا شراً عن سبقوهم وجروا إلى عقائد المسلمين وقرآنهم شراً كثيراً، وذلك بما ذكروه فى التفسير من

قصص إسرائيلي تنسب إلى الأنبياء ما لا يتفق مع مهمتهم ولا يتلاءم مع عصمتهم .

ومنهم من يكون باحثاً كونياً أو فيلسوفاً عقلياً يتلمس من النصوص القرآنية ما يكون له ظل من نظرياته ، أو ما يكون له نوع اتصال عن قرب أو بعد بما يتمشى مع أفكاره ، مرتكباً فى ذلك الصعب والذلول حتى يكون لرأيه شاهد من القرآن ، وحتى يكون لما طار به تفكيره وسرح به نظره مستند من وحى السماء ، وذلك كتأويل القائلين بأن النعيم والعذاب روحيان وكالقائلين بالتناسخ .

ولا شك أن القصد بذلك المسلك فى التفسير هو الخداع أمام الجماهير بأن صاحب ذلك التفكير قد وصل إلى ما لم يصل إليه الأوائل ، وفى ذلك كثير من كتب التفسير مما ذكره الرازى ، والشيخ طنطاوى جوهرى .

وعلى هذا السنن كان منهم من كتب فى الفروع مستطرداً لمسائل الفقه كالقرطبى ، ومن كتب متأثراً بالنحو كأبى حيان ، وقواعد البلاغة كالزمخشرى ، أو كان متأثراً بالتصوف كابن عربى ، والمذاهب الكلامية كالفخر الرازى .

ومن المتأخرين من جمع فى التفسير الواحد ألواناً من تلك الثقافات وإن تلونت مشاربها واختلفت مآربها كالألوسى .

ولا شك أن تلك التفاسير ، وإن كانت موسوعات علمية تجمع فنوناً متنوعة ، ومراجع ثقافية ، فالوزن الفنى لها كتفسير لكتاب الله تعالى ،

وتوضيح معناه يجعلها بضاعة مزجاة قد بعدت عن الهدف المقصود، ونأت عن الغرض المنشود.

وهذا النوع من التفسير على اختلاف ألوانه، وتنوع مشاربه وغاياته يسمى التفسير التحليلي.

النوع الثاني: أن يعمد الباحث إلى الآيات القرآنية على ترتيب التلاوة أو نظم المصحف فيقصد إلى معاني جملها متتبعاً ما ترمي إليه من مقاصد، وما تهدف إليه الجمل من معان يكون في عرضه لهذه المعاني قد وضعها في إطار من العبارات التي يصوغها من ألفاظه ووضعها في قوالب تستسيغها الجماهير ويدركها من له من العلم زاد قليل، وهو إذ يسير في ذلك التفسير على نهج القرآن في ترتيبه يجعل المعاني بعضها متصلا ببعض، وهو إذ ينطلق بعبارته التي صاغها من ألفاظه يأتي بين الفينة والفينة بلفظ من ألفاظ القرآن حتى يشعر السامع أنه لم يكن بعيداً في تعبيره عن سياق القرآن، ولا مجانباً لمجموع ألفاظه، وحتى يحقق التفسير من جانب ويكون رابطاً نفسه بنظم القرآن من جانب آخر ويكون في الموضوع الذي يجانب فيه لفظ القرآن آتياً بلفظ يكون أوضح عند السامع، وأيسر في الفهم عند المخاطبين.

وفي الموضع الذي يعبر فيه بلفظ القرآن يكون ذلك اللفظ القرآني الذي نطق به في جملة ألفاظه واضح المعنى جلي المقصود. وبذلك يكون فيما جاء به من لفظ موضحاً للمقصود. ومثل ذلك النوع من التفسير يكون مماثلا للترجمة المعنوية التي لا يتقيد فيها المترجم لفظاً بلفظ، ولا حرفاً بحرف، وإنما يقصد بها إلى توضيح المعاني وتجليتها في بيان المقصود من جملها وتراكيبها، وتكمل له الفائدة المرجوة في ذلك بأن يلمح إلى ما يحتاج إليه

الموضوع فى إيجاز من حادثة تاريخية ، أو سبب نزول أو حديث نبوى ، أو أثر عن السلف .

وهـذا النوع من التفسير قد سلكه المحدثون فى تقدمة التلاوة بالإذاعة . والمقصود منه إعطاء فكرة إجمالية عما يتلوه القارىء من القرآن الكريم حتى يكون السامع للقرآن الذى يتلى عليه كاشفاً لمراميه واعياً لمقاصده ملماً بأطرافه مدركاً لمغزاه ، وبذلك لا يكون سماع القرآن مقصوراً على جمال المقاطع ، وتوقيع النغم ، وإنما يكون له مع ذلك وعى بالمقروء ، وإن كان إجمالا وإدراك المتلو وإن كان عاماً . ويعرف بالتفسير الإجمالى .

النوع الثـالث : أن يعمد الباحث والناظر فى القرآن إلى الآيات التى تتصل بموضوع واحد فيجمعها ويجعلها نصب عينيه وموجودة بين يديه ، ثم يقلب الطرف فى أنحائها ويجيل الفكر فى جوانبها ، ويكون منها الموضوع الذى تتصل به ثم يعمد إلى جوانب ذلك الموضوع ويجعله فى إطار متناسب وهيكل متناسق ، ملوناً لنواحيه مبرزاً لمراميه ، حتى يكون هيكلا تاماً متكامل الأجزاء تام البنيان تام الأركان ، فإن أعوزه كل ذلك الموضوع إلى حديث جاءت به السنة حتى يكمل هيكله ويتم له صرحه جاء به ، وعلى ذلك ينجلى للقارىء بوضوح الآية الهدف الذى يقصد القرآن إليه ، والمعنى الذى يعول عليه وبهذا يستكشف القارىء للقرآن هدايته ، ويبرز للناس من مواضع القرآن ما جاء به لأداء مهمته ورسالته .

نقول : ذلك النوع من التفسير وإن نحا نحوه علماء العلوم المختلفة غير علم التفسير كعلم الكلام عند الاستدلال على صفات الله تعالى بالدليل النقلى من قبل قوله تعالى : (عالم الغيب والشهادة ـ فعال لما يريد ـ الله خالق كل شىء) وكذلك فى علم الأخلاق والتصوف والفقه ، فإن تلك العلوم بوبت فيها

أبوابها واستشهد بها ودعمت بما يلائم تلك الأبواب من أدلة قرآنية وآيات تنزيلية . نقول : ذلك النوع من التفسير وجد ما يدانيه فى علوم أخرى ، إلا أنه على النحو التفسيرى لم يتم بنيانه ، ولم تقم أركانه ولم ينح نحوه أحد من السابقين بل لم يتعرض له من اللاحقين إلا القليل .

وهذا المنهج من التفسير يستلزم ـ كما ذكرنا ـ جمع الآيات المتحدة الموضـــوع وتحريك النظر فى إتجاهاتها حتى يتأتى تحريك النظار نحوها لاستكشاف ما يكون فيها من إتجاهات شتى ، وبذلك نقتطف من كل غصن من أغصان ذلك البحث ما يناسبه حتى تكون فروع ذلك الموضوع مستوفاة مستكملة ، ويكون لكل فرع من الآيات ما يناسبه ، ثم ينتقل إلى موضوع آخر وهكذا حتى يأتى على الأهداف التى يرعاها القرآن الكريم ويجمع الموضوعات التى يهتم بالدعوة إلى فعلها أو يهتم بالنهى عن مقارفتها ، وذلك كموضوعات الألوهية والرسالة والبعث ، وكموضوعات الربا والخمر والزنا والجهاد ، وما يجب على المجتمع من مراعاة حقوق الأفراد ومراعاة الأفراد لحقوق الجماعات . وهذا النوع من التفسير يقال له : التفسير الموضوعى .

النوع الرابع من التفسير : أن يعمد الباحث إلى جملة من الآيات القرآنية فى مكان واحد ويستطلع آراء المفسرين متتبعاً ما كتب فى تفسير تلك الجملة من الآيات . سواء كانوا من السلف أم كانوا من الخلف ، وسواء أكان تفسيرهم من التفسير المنقول أم كان معتمداً على الرأى ويوازى بين الإتجاهات المختلفة والمشارب المتنوعة فيما سلكه كل منهم فى تفسيره وما إنتهجه فى مسلكه فيرى من كان منهم متأثراً بالخلاف المذهبى ومن كان منهم قاصداً تأييد فرقة من الفرق أو مذهباً من المذاهب

ويوضح أن منهم من تأثر بفنه الذى غلب عليه وثقافته التى برع فيها

ليبرز نواحي كل مفسر في تفسيره وكيف غلب على هذا نحوه فأكثر من وجوه الإعراب ، وعلى ذاك بلاغته فذكر من نواحي الفصل والوصل والإيجاز والإطناب وعلى آخر قصصه فذكر من الحوادث والقصص مالا يتفق مع المعقول ولا يؤيده المنقول ، وكيف غلب على غير أولئك تشيعه أو تصوفه أو ما تمذهب به من معتزلة وأشاعرة . وما ملأت به طائفة أفكارها من علوم كونية ونظريات علمية وإتجاهات فلسفية . كل ذلك يكون فيه معرجاً على ما يستسيغه بنقله ، وناقداً ما لا يقبله بذوقه .

وقد يكون ذلك النوع من التفسير المقارن ذا مجال أوسع وجو أفسح فيتجه في ذلك التفسير إلى مقارنة النصوص القرآنية المشتركة في موضوع واحد ، وما جاء في السنة كذلك من الأحاديث ، ثم يقارن بين تلك النصوص القرآنية بعضها مع بعض كما يقارن بين ما جاء في القرآن الكريم وبين ما جاءت به السنة وذلك مما يكون ظاهره الإختلاف من مثل قوله تعالى : (وقفوهم إنهم مسئولون) وقوله : (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان) ، ومن مثل قوله تعالى : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون . . الآية) . وقوله : (وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون) . وقوله عليه الصلاة والسلام في الصحيح : « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله » وذلك ما عنيت به العلماء تحت عنوان آخر ، وهو موهم الإختلاف والتناقض في علوم القرآن ومختلف الحديث في علوم الحديث وقد يتسع النظر فيما بين القرآن والكتب السماوية الأخرى ليظهر مدى الاتفاق والإفتراق بين ما جاء في تلك الكتب وما جاء في القرآن الكريم .

وقد تكون المقارنة بين النصوص القرآنية ذات القصة الواحدة أو الموضوع الواحد لتظهر المفارقات بين مختلف التعبيرات عن المعنى الواحد

بعبارات تختلف إيجازاً وإطناباً وتأكيداً وعدم تأكيد ، وأكثر ما يكون ذلك فى قصص القرآن فتكون مهمة المفسر فى ذلك البحث عن الأسباب والكشف عن الأسرار والحكم التى من أجلها كانت المخالفة بين التعبيرين والمغايرة بين الأسلوبين إيجازاً تاره وإطناباً تارة أخرى ، وتعبيراً بلفظ مرة ووضع لفظ آخر بدله مرة أخرى وذلك وإن بحث فى مشتبه القرآن إلا أنه نوع آخر من المقارنة والموازنة .

وتلك الأنواع جميعها - وإن كان أبرزها الأول - تسمى بالتفسير المقارن . وعلى ذلك يكون التفسير أنواعاً متعددة نجملها فيما يأتى :

١ — التفسير التحليلى : وهو بيان الآيات القرآنية بالتعرض لجميع نواحيها والكشف عن كل مراميها حتى يكون المفسر مستوعباً لجميع الأهداف التى تتطلبها من بحث عن ألفاظها ومعانيها وأسباب نزولها وعما ترمى إليه من أحكام وعقائد وعن السر فى تعبيرها وما ترمى إليه بألفاظها وتستهدفه بأسلوبها . ومن أمثلته تفسير الفخر الرازى وتفسير الألوسى .

٢ — التفسير الإجمالى : وهو بيان الآيات القرآنية بالتعرض لمعانيها إجمالا مع بيان غريب الألفاظ والربط بين المعانى وما يستلزم ذلك من سبب نزول أو ذكر قصة ، وذلك بسرعة خاطفة وتعبير سهل يعطى صورة مجملة عن الطائفة الكبيرة من الآيات فى زمن قليل وتعبير وجيز ، ومن أمثلته : تفسير الجلالين وتفسير محمد فريد وجدى .

٣ — التفسير الموضوعى : وهو بيان الآيات القرآنية ذات الموضوع الواحد وإن إختلفت عباراتها وتعددت أماكنها مع الكشف عن أطراف ذلك الموضوع حتى يستوعب المفسر جميع نواحيه ويلم بكل أطرافه وإن

أعوزه ذلك لجأ إلى التعرض لبعض الأحاديث المناسبة المقام لتزيدها إيضاحاً وبياناً .

٤ — التفسير المقارن : وهو بيان الآيات القرآنية على ما كتبه جمع من المفسرين بموازنة آرائهم والمقارنة بين مختلف اتجاهاتهم والبحث عما عساه يكون من التوفيق بين ما ظاهره مختلف من آيات القرآن والأحاديث ومايكون من ذلك مؤتلفاً أو مختلفاً من الكتب السماوية الأخرى .

وإذا تجلى لنا الفرق بين تلك الأنواع من التفسير فلنتعرض لما عزمنا عليه من الكتابة عن التفسير الموضوعي ولنبدأ بوجه الحاجة إليه .

الحاجة إلى التفسير الموضوعي

والحاجة إلى التفسير الموضوعي ظاهرة من بيان أنه عبارة عن شرح الآيات القرآنية ذات الموضوع الواحد ، لأنه إذا كانت المباحث القرآنية متجلية للباحث بجميع نواحيها ، متجهة به إلى غايتها ، مبرزة لنواحي الحكمة في دعوة القرآن إليها ، كان ذلك المنهج باعثاً المطلع عليه إلى أن يسلك الطريق الذي رسمه القرآن ، حيث كان واضح الغاية محدد النهاية بارزاً في تصويره جامعاً لكل الأهداف في تحقيقه ، فإذا ما أشبع الإنسان رغبته من موضوع وانتقل إلى موضوع آخر منتهجاً ذلك المنهج كان القرآن بيناً للناس في جميع نواحيه ، متجهاً بهم إلى جميع مراميه ، ولا شك أن ذلك المسلك ، وتلك الطريقة تؤدي بالناس إلى أن يفهموا القرآن فيتبينوا اتصاله بواقع حياتهم حيث يرشدهم إلى الصالح منها ويجنبهم ما يكون حذراً لهم وعائقاً عن طريق إسعادهم . وذلك كما قال الشيخ محمود شلتوت رحمه الله : وهذه الطريقة

فى نظرنا هى الطريقة المثلى وخصوصا فى التفسير الذى يراد إذاعته على الناس بقصد إرشادهم إلى ما تضمنه القرآن من أنواع الهداية ، وإلى أن موضوعات القرآن ليست نظريات بحتة يشتغل بها الناس من غير أن يكون لها مثل واقعية فيما يحدث للأفراد والجماعات من أقضية تتصل بحياتهم من شئون[1] .

فبهذه الأبحاث الموضوعية يستشف الإنسان هدى القرآن فيما يصحح به علاقاته بربه حيث تكون معرفته معرفة صحيحة لا يشوبها من غبار التشبيه ما يحيد به عن الطريق ، وبمعرفته لنفسه يعلم احتياجه إلى تلك القوة القاهرة القادرة .

فإذا وصل إلى هاتين المعرفتين ، وقدرهما حق قدرهما وعلم أن الله خالق قادر ، وهو مخلوق ضعيف تقلب فى أطوار خلقه من حال إلى حال بعد أن لم يكن شيئا مذكوراً ، اتجه فى السلوك إلى تلك الذات الخالقة سلوكا يرضيها وسار إليها سيراً يقربه منها ، ويدنيه إليها ، فيرتسم ما شرعته من أعمال ويتحلى بما رسمته من كريم الخلال وجميل الأفعال حتى تقوى صلته بها ثم ينظر بعد ذلك إلى ما أرشد إليه هدى القرآن وإلى ما يصلح به الفرد وتصلح به الجماعة من معاشرين وجيران وأهل وأوطان ومنتهجاً فى ذلك ما يكون من الوسائل الصحيحة فى البيع والشراء والأخذ والعطاء .

وهكذا حتى يكون منهجه فى حياته منهجاً قرآنيا وسلوكه إليها سلوكا شرعيا ، وهو بعد ذلك يقدر نهايته إذا ما حاد عن طريق القرآن ، بأن يشقى فى حياته الدنيا ويشقى فى حياته الأخرى .

---

(١) الإسلام والعلاقات الدولية ص ١٠

وإذا كان ذلك كذلك فى دراسته لموضوعات القرآن كان له من القرآن كامل الانتفاع ، متزوداً منه خير زاد إلى فسيح البقاع ، وأدرك بذلك النوع من البحث هداية الله فى القرآن إدراكاً سامياً ، وعرف تشريعات القرآن معرفة صحيحة ، وليس ذلك إلا بواسطة هذه الدراسة الموضوعية التى تحدد الأهداف وتشق الطريق إلى المقصود ، وتفتح القلوب إلى الغاية ، وتمكن النفوس من الغرض والعيون من الهدف .

والعصر الذى نعيش فيه يحتاج إلى ذلك النوع من التفسير حيث كان فى سلوكه إدراك المقصود من أقرب الطرق والوصول إلى الحقيقة بأسهل الوسائل ، خصوصاً أنه فى عصرنا يثار كثير من الغبار فى جو الأديان فتنتشر المبادىء الشيوعية ، وتخلق فى سماء الإنسانية سحب الضلال والشبه ، وليس يقوى على ذلك إلا سلاح قوى واضح سهل يمكن رجل الدين من الذود عن حياضه ، والدفاع عن دعائمه ، وليس هذا إلا بذلك النوع من التفسير حيث كان جامعاً لشتات الموضوعات محيطاً بأطرافها .

ولا ريب أن هذه الطريقة فى الأبحاث القرآنية ، فيها الدواء من الأسقام النفسية والجسمية ، وفيها العلاج لكل مشاكل حياتنا السياسية والاجتماعية . قال تعالى : (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) وجاء عنه ﷺ فيما رواه الترمذى عن الحارث الأعور عن على عن النبى ﷺ قال : « ستكون فتن كقطع الليل المظلم ، قيل : فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال كتاب الله تعالى ، فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ونوره المبين والذكر الحكيم والصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تتشعب معه الآراء ولا يشبع منه العلماء ولا يمله الأتقياء ، من علم علمه سبق

ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل ، ومن اعتصم به فقد هدى إلى صراط مستقيم ».

متى نشأ التفسير الموضوعى؟

نزل القرآن على رسول الله ﷺ وأقرأه أصحابه رضى الله عنهم وكانوا يعرفون من أسراره مالا يعرفه أحد ، ولكنهم لم يدونوها ، لأن القرآن قد ملأ عليهم حياتهم . فكانوا دائبين على دراسته وفقهه ونشره بين المسلمين ، وكانوا عرباً خلصاً يتمتعون بصفاء الذهن وقوة العارضة ، ثم إن معالجة الكتابة ليست بالشىء السهل بحيث تشجعهم على كتابة كل شىء .

وكان رسول الله ﷺ بين أظهرهم يستفتونه فى كل شىء عن لهم أو اختلفوا فيه ، وحتى بعد انتقاله عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى كانوا يعرضون آراءهم على القرآن وعلى السنة وعلى ما تذوقوه من نور الشريعة السمحة ونور صاحبها ، وهاك مثالا يتضح منه أن التفسير الموضوعى وجد فى العصر الأول ، وإن كان بصورة غنية عن الشرح والتفصيل :

قول الله تعالى : (واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن) فقد أشكل على بعض الأئمة هذا الشرط ـ وجاء سبب النزول يعيننا على فهم المراد منه : فقد أخرج الحاكم عن أبى بن كعب أنه لما نزلت الآية التى فى سورة البقرة فى عدد النساء (٢٢٨ ، ٢٢٤) قالوا : قد بقيت عدد لم تذكر وهى : عدد الصغار والكبار فنزلت .

ثم لما تطورت الحياة وجاء وقت تدوين الكتب وتأليفها ، شملت فيما شملت تفسير القرآن الكريم : فنرى عن ألف فى التفسير الموضوعى : قتادة بن دعامة السدوسى المتوفى (سنة ١١٨ هـ) فقد ألف فى الناسخ والمنسوخ

وأبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى (سنة ٢٠٩ هـ) ، وكتابه (مجاز القرآن) مطبوع — وألف أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى (سنة ٢٢٤ هـ) فى الناسخ والمنسوخ وكتابه مطبوع ، وألف فى أسباب النزول : على بن المدينى شيخ البخارى المتوفى (سنة ٢٢٤ هـ) ، والواحدى النيسابورى (المتوفى ٤٦٨ هـ) وكتابه مطبوع .

وألف فى غريب القرآن : أبو بكر السجستانى المتوفى (سنة ٣٣٠ هـ) ، والراغب الأصفهانى المتوفى (٥٠٢ هـ) ، وألف ابن قتيبة المتوفى (٢٧٦ هـ) كتابه : (تأويل مشكل القرآن) .

وألف الشريف الرضى المتوفى (سنة ٤٠٦ هـ) كتابه : (تلخيص البيان فى مجازات القرآن) .

ومن ألف فى إعجاز القرآن : الباقلانى المتوفى (سنة ٤٠٣ هـ) ، والرمانى المتوفى (سنة ٣٨٦ هـ) ، والخطابى المتوفى (سنة ٣٨٨ هـ) والجرجانى المتوفى (سنة ٤٧١ هـ) .

وألف ابن القيم المتوفى (سنة ٧٥١ هـ) فى أقسام القرآن ، والبقاعى المتوفى (سنة ٨٨٥ هـ) فى تناسب الآيات والسور وهو آية فى بابه .

ومن مؤلفى العصر الحديث : محمد صادق الرافعى : وكتابه يسمى (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) — محمد مصطفى المراغى : وكتابه فى : (ترجمة القرآن الكريم وأحكامها) — محمد فريد وجدى : وكتابه : (الأدلة العلمية على جواز ترجمة معانى القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية) . إلى غير ذلك من الكتب الحديثة التى تتناول التفسير من زاوية الموضوع الواحد ذى الهدف الواحد .

طريقة البحث فى التفسير الموضوعى :

للباحث فى هذا النوع من التفسير طريقتان :

(ا) أولاهما : أن أجعل السورة القرآنية وحدة متكاملة هدفها واحد، وإن تعددت موضوعاتها، فهى تدور حول مركز ركيز يسمى بالغرض، سواء كان عاماً أو خاصاً .

فنقول مثلا : سورة البقرة : الهدف منها تحديد الطريق القويم لمن أراد أن يسلك نفسه مسلك المتقين، ثم تفسر الموضوعات التى وردت فى السورة على هذا الهدف .

وتقول مثلا : سورة آل عمران : هدفها تحديد معالم الالوهية الحقة، وإثبات أن الله واحد لا شريك له .

وهكذا فى كل سور القرآن .

ومما يعيننا على فهم هذا النوع من نوعى التفسير الموضوعى :

١ — كتاب (نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور) للبقاعى (م سنة ٨٨٥ هـ) ، وهو كتاب فريد، حيث أدمج كل موضوعات السورة تحت غرض واحد تدور عليه آيات السورة الواحدة .

٢ — كتاب (النبأ العظيم) للدكتور محمد عبد الله دراز ، وهو كتاب لا يستغنى عنه باحث ، وقد تكلم فيه عن سورة البقرة ، ونظمها فى عقد فريد يظهر جمال النظم الإلهى ، ذى الترتيب المحدد بمقدار معين .

(ب) ثانيتهما : أن نجمع الآيات القرآنية ذات الهدف المشترك ،

وترتيبها على حسب النزول - ما أمكن ذلك - مع الوقوف على أسباب النزول - إن وجد - ونتناولها بالشرح والبيان والتعليق والاستنباط، ونوزنها بميزان العلم الصحيح، مع الإحاطة التامة بكل جوانب الموضوع كما ورد فى القرآن الكريم، بقصد الوصول إلى الغاية المرجوة من وراء هذا البحث القرآنى، وإفادة المجتمع الإسلامى منه.

والطريقة الثانية هى المعمول بها فى مجال البحوث العلمية الموضوعية، وإذا ما أطلقت كلمة: «تفسير موضوعى» فلا يفهم منها إلا بحث موضوع من موضوعات القرآن الكريم على مستوى القرآن جميعه.

وأول ما يجب على الباحث:

١ — أن يجمع الآيات القرآنية التى تخدم موضوعه، مستعينا على ذلك بحفظه وبالمصحف الشريف، وببعض الكتب التى عنيت بجمع الآيات تحت عنوان واحد، أو التى تجمع الآيات المتماثلة فى حروف المعجم - مثل كتاب (المفردات) للراغب الأصفهانى (م سنة ٥٠٢ هـ) وكتاب (إصلاح الوجوه والنظائر فى القرآن الكريم) للدامغانى (ومعجم ألفاظ القرآن الكريم) لمجمع اللغة العربية. و (تفصيل آيات القرآن الكريم) لجول لابوم ويليه (المستدرك) لأدوار مونتيه: تعريب الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى. و(المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى.

٢ — ثم يرتب هذه الآيات حسب النزول - ما أمكن - ما نزل فى مكة أولا، ثم ما نزل فى المدينة ثانياً - وما نزل أول العهدين قبل ما نزل آخرهما.

٣ — إزاحة ما قد يكون بين الآيات من موهم الاختلاف والتناقض،

موقناً أن القرآن لا يوجد فيه اختلاف تناقض، وما وراء ذلك يمكن التوفيق بين الآيات بعضها وبعض، لاختلاف الجهة من الزمان أو المكان أو الحقيقة والمجاز، أو اختلاف جهتى الفعل، أو وقوع المخبر به على أحوال مختلفة... ونحو ذلك.

٤ — تفسير الآيات أثناء عرضها تفسيراً يفهم منه الحكمة فى إيراد الآيات، والغرض من هذا التشريع الإلهى، والغاية من وراء تنفيذ الأمر واجتناب النهى، مع تدعيم التفسير بالسنة النبوية، وأقوال السلف الصالح، وإيراد أسباب النزول إن وجدت، وشرح قصة من قصص الأنبياء والأمم السالفة إن وردت فى الآيات محل الشرح، مع مراعاة شروط المفسر أثناء عرض الموضوع.

٥ — إخراج الموضوع فى صورة متكاملة تامة البناء والإحكام، بمراعاة شروط البحث العلمى، واضعاً نصب عينيه أنه يبرز للناس طريقاً من طرق إرشاد القرآن التى هى أقوم، طارحاً وراءه عقيدة فاسدة، أو أية مؤثرات خارجية قد تطغى على الحقيقة المنشودة من وراء بحثه للآيات القرآنية، ويكون هدفه الأسمى إبراز محاسن القرآن لخدمة الأفراد والمجتمع الإسلامى.

إجمالى لما عرض إليه القرآن من موضوعات

القرآن الكريم دستور الإنسانية من لدن رسالة سيدنا محمد ﷺ إلى أن تقوم الساعة ، فهو ناسخ لما نزل من الكتب قبل ذلك ، مهيمن على ما جاءت به (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه) . وهو بعد ذلك لا ينسخه كتاب ولا ينقضه ناموس ، وهو فى الوقت نفسه رسالة عامة لجميع الناس قاصيهم ودانيهم ، أبيضهم وأسودهم : (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً) . بل إنه تشريع لكل من الإنس والجن .

وكتاب مهمته تلك ، ورسالته هذه ، متسقة الأطراف ، ممتدة الأزمان لا شك يكون مع تحديد صحفه وحصر جمله متعرضاً لكل موضوع يهم البشر فى عقيدتهم ، ويرسم لهم طريق السعادة فى سلوكهم سواء فى ذلك ما يهدى إلى الخالق وما يوجه إلى البحث عن أسرار الكون ، وما يؤدى إلى تقوية العلاقة بين الخالق والمخلوق ، أو إلى حسن الصلة بين الإنسان وأخيه الإنسان ، ثم هو كذلك يوضح لهؤلاء الذين أرسل إليهم الحكمة من خلقهم كما يبين لهم ماذا يؤول إليه أمرهم .

وهو إذ ينشد لهم طريقاً إلى البحث عن أسرار الكون والكشف عن غامض هذا الوجود ، لابد أن يكشف لهم عن نوافذ ذلك السر حتى يتسرب منها أشعة ضوئها ، تستهدى بها نفوسهم ، وتشرئب لها أعناق نفر منهم ، فتسترعى عقولهم إلى السير فى تلك الجادة حتى تكشف ما أودع فى تلك

الخلائق من قوى تظهر بمرور الأيام ، وينتفعون بحقها وثمارها على مدى الأزمان والأعوام .

نقول : كتاب كذلك رسالته ، وعلى هذا المنوال هدايته ، وهذه الذات الإلهية مصدره ومنبعه لا بد أن يكون ملماً بجميع الموضوعات التى بها يؤدى تلك المهمة الكبرى ، وهذه المسئولية العظمى مفصلا بعض التفصيل لهذه الموضوعات ، ومجملا كثير منها على حسب ما تقتضيه تلك المهمات إجمالا وما تستلزمه تلك الحالات تفصيلا .

ولذلك تراه يعرض لكثير من الموضوعات نذكر على سبيل الإجمال بعضاً منها فنقول : تعرض القرآن الكريم لما يأتى :

أولا : تعرض للألوهية فى وضعها الحقيق وجلى عنها ما أسدلته عليها الأوهام من أستار ، وحجبت ضوءها عن أن يصل إلى الفطر الإنسانية فى دور سذاجتها حتى لبست الحقيقة بالباطل ، وأبرزت الزور فى صورة ينخدع بها كثير من الناس . فجاء القرآن مخاطباً العقل فى إثبات تلك الألوهية بإرسال الأضواء العقلية على الأهداف المنصوبة أعلاماً للألوهية ، وأزال ما يحيط بهذه الأعلام من ضباب وهو فى عرضه لذلك يبلغ المقصود من طريق ميسر قريب ، ويفتح الباب أمام العقول بواضح البرهان غير مقيم فى ذلك الطريق عقبات من اصطلاحات علمية ، ولا يثير فى جو تلك الهداية غباراً من أوهام المضللين .

ثانياً : ومن جملة ما تعرض له القرآن تلك الحياة الأخرى وقد صورها بظاهر نصوصه تصويراً يجعلها نتيجة حتمية تستوجبها صفة العدالة لتلك الذات الإلهية صاحبة الهيمنة الكلية على الكون بأسره ، وهى بتلك الهيمنة

تكون بعيدة عن اللهو والعبث مجافية للظلم محققة للعدل ، وحيث تكون كذلك فهي لا تسوى بين محسن ومسيء وصالح وطالح ، ومحق ومبطل، وضال ومهتدى ، لذلك يقول فى مخاطبته مصوراً تلك الحياة : (أفنجعل المسلمين كالمجرمين ٭ ما لكم كيف تحكمون ٭ أفنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ٭ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ٭ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) .

ثالثاً : ومن ذلك ما تعرض له القرآن فى شأن هؤلاء الرسل الذين اصطفاهم الله تعالى من بين خلقه ، يحملون وحيه ويبلغون رسالاته وهم إذا اصطفاهم الله تعالى ذلك الاصطفاء القدوة الحسنة لحسن معدنهم وطيب أصولهم ، لأن تحمل الأعباء لمثل تلك المهمة إنما يكون لمن بلغ من المكانة شأواً واسعاً ، ومن بلغ فى الذروة أكملها ، وحيث كانوا مبلغين عن الله تعالى داعين إلى شرائعه فقد جعل الله تعالى طاعتهم من طاعته ، ومخالفتهم مستوجبة غضبه ومؤذنة بحربه ، وحيث نصبوا أنفسهم للهداية قولا وضربوا المثل العليا عملا لا يتأتى منهم المعصية ولا تصدر منهم حوبة ، ولا يثار فى جو سمائهم غبار من إثم ، ولذلك تحسن بهم القدوة ، وتكمل بتبعيتهم أفراد البشرية ، وهم وإن جاءوا متفرقين فى العصور فهم شجرة واحدة ذات أصل واحد ، وإن انتشرت فروعها وتفرقت أغصانها ، ولذلك وجب الإيمان بجميعهم دون تفرقة بينهم (لا نفرق بين أحد من رسله) ومن فرق بينهم كان هو الكافر حقاً .

رابعاً : ومن ذلك ما جاء به ذلك الصنف الذين هم واسطة بين الله والناس ، قد جعلهم الله تعالى خلقاً آخر ليس من عالم المادة والعناصر ، يقومون بوحى

الله إلى الرسل ، كما يرعون البشر فى أمور معاشهم يحفظونهم فى تصرفاتهم ، ويسطرون لهم أعمالهم ، ويسجلون عليهم أفعالهم يتعاقبون فيهم ليلا ونهارا عن اليمين والشمال يختلفون فى منازلهم ، يتميزون فى مكانتهم ، فهم علويون وسفليون ، وأرضيون وسمائيون ، وكروبيون . منهم الرؤساء ومنهم المرؤسون ، وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

خامسا : ما جاء به القرآن من تشريعات للفرد والمجتمع ، فقد حرم على الناس دماءهم فيما بينهم ، وصان عليهم عقولهم وأطرافهم ، ووضع لها الديات جزاء لهم ، وشرع لذلك القصاص حياة لهم ، فقال : (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى) ، (ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون) ، (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص) .

وحرم على الناس أعراضهم وحذرهم أن تنتهك فيما بينهم ، ولم يبحها إلا لأزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ، صيانة لها عن الاختلاط ، وحفظاً لأنسابهم عن الضياع ، ووضع لذلك الحدود الزاجرة ، والعقوبات الرادعة ، فقال : (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ه الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك ، وحرم ذلك على المؤمنين) .

ونهانا عن أكل أموال الناس بيننا بالباطل عن طريق الغش والخداع والغصب والإكراه ، وحيل الربا وأنواع الاستغلال الحرام فقال :

(ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون) .

وقد أبدلنا الله تعالى عن ذلك البيع والشراء وجعل ذلك عن تراض فقال : (وأحل الله البيع وحرم الربا) وأمر بإخراج الزكاة وتوزيعها على أصحاب الحاجات ، وأرباب الفاقات فقال : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله والله عليم حكيم) ، لينزع الحقد والغل والحسد من نفوس الفقراء على الأغنياء ، ويسود الأمن والطمأنينة والاستقرار والرخاء فى المجتمعات ، وحتى لا تجمع الثروة فى يد بعض الأفراد ، وحتى لا يكون المال دولة بين الأغنياء فقال : (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم • يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) وقال : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) .

وحثنا على القرض والصدقات وإنفاق المال فى وجوه البر والخيرات (من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة) ، (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم) .

سادساً : كذلك جاء القرآن فى المعاملات الاجتماعية بما يتفق مع شئوننا الخاصة ومصالحنا العامة ، ويحفظ على الأمة كيانها ، ويقوى بنيانها ، ويديم عليها قوتها ويحفظ اقتصادها ويحقق لها رفاهيتها ونظامها ، ويسعدها بوحدتها وتماسكها ، ويجعلها خير أمة قوة ومنعة وأمناً وعدلا . قال تعالى : (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) ، (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى

الأرض وابتغوا من فضل الله) ، (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين) ، (يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا) ، (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) . إلى غير ذلك من الآيات .

سابعاً : ومن ذلك ما جاء به القرآن من أكرم الخلال ، وأكمل الخصال ، وأسمى السجايا وأحسن الأفعال .

جاء يأمرنا بالعفو والصفح وكظم الغيظ وأداء الأمانة وإقامة العدل ، وتنفيذ العهد ، والوفاء بالعقد ، والإصلاح بين الخلق ، والصبر وحب الخير ، وصلة الأرحام ، وبر الوالدين وحسن الجوار والاستئذان ، وإفشاء السلام ، وغض الأبصار عن الحرام ، والعطف والإحسان ، والتعاون والتناصح ، والصدق فى القول والإخلاص فى الدين والعمل .

ونهانا عن الإيذاء والظلم والغيبة والنميمة والتجسس على العورات ، وظن السوء بالمؤمنين والمؤمنات ، ورمى المحصنات الغافلات ، والبغى والنفاق والغش والكذب والكبر والمنكر والعدوان والحسد والحقد والقتل والربا والزنا وشهادة الزور ولعب الميسر واللهو الحرام ، والإسراف والتقصير وشرب الخمر . وغير ذلك مما لا يخفى على قارىء القرآن الكريم ، قال الله تعالى : (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين) ، (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) ، (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها) ، (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) ، (وأصلحوا ذات بينكم) ، (لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس) ، (أولئك يسارعون فى الخيرات) ، (واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام) ، (وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين

والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم)، (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها)، (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم) (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه)، (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان)، (وأخلصوا دينهم لله) ... إلى غير ذلك من الآيات .

ثامناً : ما جاء في القرآن الكريم خاصاً بالعبادات من صلاة، وصيام وحج وزكاة .

فقد شرع القرآن منها للناس ما كان في الغالب الكثير معقول المعنى، بين الحكمة، مفهوم الغاية، جلي المرمى، يتفق مع نشأتهم وخلقهم، ويتناسب مع استعدادهم وفطرهم، ويليق ببيئتهم وأحوالهم، ويدخل تحت قدرهم واستطاعتهم فلا مشقة ولا إرهاق، ولا تعجيز ولا إعنات، ولكن سهولة ويسر وسماحة ورفق (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها)، (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا)، (وما آتيتم من رباً ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون)، (فمن شهد منكم الشهر فليصمه، ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام آخر) .

تاسعاً : موقف القرآن من أهل الكتاب :

فقد ناظر القرآن علماء الدين من أهل الكتاب الماضين فعاب عليهم تحريفهم لكتبهم وتبديلهم لها بما عندهم، وتأويلهم إياها بما لا يعتقدون أنه الحق في دينهم، وتغييرهم ما جاء فيها بما يتفق مع رغباتهم وشهواتهم،

فباعوا آخرتهم بدنيا غيرهم فى عرض قليل ، وثمن زهيد ، فخلطوا بين حقها وأباطيلهم ونبذوها وراء ظهورهم ، وضيعوا ما استحفظوا عليه من كتاب ربهم وكانوا عليه شهداء ، وأفسدوا عقائدهم فجعلوا لله أنداداً ، واتخذوا من دونه أرباباً ، (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء) ، (قل يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون) ، (وترى كثيراً منهم يسارعون فى الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون) ، (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) .. إلى غير ذلك من الآيات التى يعلمها من تلى القرآن حق تلاوته .

عاشراً : وبالجملة قد أباح القرآن الطيبات من الرزق وحرم الخبائث ، وأباح زينة الحياة الدنيا ، وحرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وهذب الطباع ، وزكى الأرواح ، وسن الأحكام ، وبين الحلال والحرام ، وفصل آية الحق ، وأبان معالم الصدق ، وخط للسعادة طرقاً وهيأ لها سبلا ، لا يضل من سلكها ، ولا يشق من ارتادها ، أقام الدليل والبرهان المفحم ، وفك رقاب البشر من قيود الشهوات وأنزلها منازل السادات ، وكرمها على سائر المخلوقات ، وكشف عن العظات البالغة ، والحكم النافعة ، ترى فيه الأمثال التى تقرب المعقول من المحس ، تخضع لسلطانها وبيانها العقول وأن لها من صحة المعنى وصدق التعبير ، وتنوع الأسلوب ، وحسن البيان ، ولطف الإشارة وإصابة الغرض ، والوصول إلى الهدف ، مالا يقدر عليه إلا الحكيم الخبير .

وما أعظم وصف رسول الله ﷺ للقرآن الكريم فيما أخرجه الترمذى عن على ـ رضى الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ستكون

فتن كقطع الليل المظلم ، قلت : يا رسول الله وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالى ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه . . « الحديث : (يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ۝ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) .

هذا بعض ما عنى به القرآن من موضوعات تتغلغل فى صميم الحياة وتصلح دستوراً عاماً فى كل زمان ومكان ، وتبرز للناس سر خلود القرآن وإعجازه وأنه (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)[1] .

---

(١) مقدمة تفسير القرطبى ١/٤ ط دار الكتب ، الأولى ، .

منهج القرآن الكريم فى عرض موضوعاته

إمتاز القرآن الكريم فى عرضه لموضوعاته بطريقة لم يسبق إليها فلا يستطيع أن يسلكها سالك أو ينتهجها ناهج ، فهو فى عرضه يتخذ له أسلوبا يختص به ، أعجز الإنس والجن عن معارضته . فتراه حين يعرضها يأتى بوجوه متعددة وأساليب متنوعة وأفانين متجددة ، يراعى المقام فى كل موقف من مواقفه ، ويطابق جميع مقتضيات الحال فى كل عبارة من عباراته ، فله فى كل مقام مقال وفى كل موضوع مجال ، فمرة يكون خبراً ومرة إنشاء وتارة إظهاراً وأخرى إضماراً . يأتى بجملة إسمية كما يأتى بها فعلية ، تتلون بين التكلم والغيبة والخطاب كما تتلون بين الماضى والحاضر والإستقبال .

تتصور بصورة الإنكار كما تتصور بصورة النفى والإستفهام وتكون على وجه الجزم كما تكون على وجه الرجاء .

طرق فى الأداء لا عهد للبشر بها فى أبلغ كلام ولا مثيل لها فى أفصح بيان ، غاية فى البلاغة ليس لها نهاية ، ونهاية فى الفصاحة لا يجاوز الفصحاء مبتدأها .

ثم هو فيما يعرضه من موضوعات شتى لا يهمل جانب النظر ولا يغض من شأنه بل يحث عليه ويدعو إليه ويتحاكم إلى العقول فى كشف الحق وبيان الصدق . يشفع حكمه ببيان حكمته وتوجيه شرعته ثم يدع للسامع الحرية وحسن الإختيار فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .

وإن تعجب فعجب عرضه للموضوع الواحد ذى المعنى المتحد والهدف المشترك فإنك تجده مع تفرقه فى القرآن الكريم فى أماكن عدة ومع تباعد أوقات نزوله وتباين أزمان وصـــوله ، ليس بين آياته مفارقة ولا تلفيق ولا تشويه ولا تناقض ، بل هى وحدة واحدة مترابطة متناسقة تكون لك

صورة واحدة فى أحسن تقويم ، وتعطيك منظراً متآلفاً فى أبدع تنظيم وتصور لك دمية متناسقة الأعضاء ، مترابطة الأجزاء ، متكاملة البناء، جيدة السبك ، قوية المعنى ، متينة النظم ، لا تناكر بين معانيها فى العقول والأفهام ولا تباين بين مبانيها فى الأسماع والآذان ، بل يكمل بعضها بعضاً ويأخذ بعضها بعجز بعض .

كل جزء يستدعى الآخر معه ، وكل لفظ يقع من الثانى موقعه .

وبالجمله : فالقرآن الكريم فى عرضه لموضوعاته فريد فى بابه .

وإليك بعض الأمثلة فى طريقة العرض لتكون نبراساً يستهدى به فى منهج القرآن لعرضه لباقى موضوعاته :

عرضه لتشريع الأحكام وبيان الحلال والحرام

أولا : لما كان ذلك يحتاج إلى مزيد من الإيضاح والبيان كى يتضح أمره ويفهم نهيه ليكون المرء على بينة منه .

نرى القرآن الكريم فى عرضه لهذا التشريع يأتى بالأسلوب السهل والتعبير البين الذى يدرك أسراره الخاصة ، ولا يعلو مقصوده على أفهام العامة ، حاوياً لوجوه المصالح والحكم ، حتى يدفع العقلاء المنصفين الى امتثاله وتقبل أحكامه . مشفوعا ببيان ما للمطيعين من ثواب وما للعاصين من عقاب ، ترغيباً للأولين وتحذيراً للآخرين .

ويتجلى ذلك فى مثل قوله تعالى : (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ، إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) . وفى مثل قوله تعالى : (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا) وفى مثل قوله تعالى : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون) وفى مثل قوله تعالى : (يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات) .

فإنا نرى الحكمة المنشودة من التشريع واضحة جلية تدركها العقول وتتمثل مغزاها الجلى بما أرشدت إليه من الصالح العام ونبل الغاية وعظيم المنفعة .

ثانياً: نرى القرآن الكريم فى العصر المكى يعنى بالعقيدة والمبادىء العامة وأصول الأخلاق الكريمة، فهو يدعو إلى عبادة الله وحده ونبذ عبادة الأوثان وتخليص النفوس مما علق بها من العادات القبيحة والتقاليد المرذولة ويوجهها إلى التحلى بالأخلاق الكريمة والصفات الحميدة.

وهو فى هذا لا يقصد إلى تشريع تفصيلى أو قانون شامل لجميع النواحى الاجتماعية والدينيه. ماذاك إلا لأنه يحارب المبادىء الهدامة فيجتثها من أساسها ويقاوم العادات السيئة فيقتلعها من جذورها ويضع مكانها المثل العليا والأخلاق الفاضلة وهى خير محض لا يتجزأ ولا تنفصم عراه ولو شاء لجاءهم بالتشريع الكامل دفعة واحدة وبالدستور الشامل جملة متآلفة. ولكنه راعى فى هذا طبيعة النفوس وتمكن العادات منها فأخذ بيدهم إلى بر الأمان وقادهم إلى ساحل النجاة، سالكا بهم طريق الترقى فى الكمالات درجة بعد درجة حتى يسهل عليهم عروج هذه المرقاة فيصبحوا أهلا للحلول فى أوج هذه الكمالات.

وإن نظرة واحدة فيما كان بمكة من تشريعات لتعطينا صورة صادقة لهذا السمو الذى ارتفع بنفوس أولئك الذين كانوا يعيشون فى جهالة جهلاء وضلالة عمياء. وانظر إليه كيف جمع الفضائل العليا والصفات الكاملة فى آيات معدودة من سورة المؤمنون: (قد أفلح المؤمنون • الذين هم فى صلاتهم خاشعون • والذين هم عن اللغو معرضون • والذين هم للزكاة فاعلون • والذين هم لفروجهم حافظون • إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . . . الآيات) ومثيلاتها من سورة الإسراء من قوله تعالى:

(وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً) إلى قوله تعالى : (ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا . كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها) .

وهذه الوصايا العالية جاءت مجموعة فى سورتى الأنعام والمعارج المكيتين. وذلك شاهد بعناية الكتاب العزيز بالمبادىء العالية وتركيزها فى النفوس قبل الدخول فى التفاصيل والفروع .

ثالثاً : هناك من التشريعات العملية ما يحتاج إلى تقرير المبدأ أولا على سبيل الإجمال ثم يكون فى حاجة إلى التأكيد والتفصيل لأنه يمس صميم الحياة ويتصل بظروف المعيشه والتعامل .

نرى القرآن فى هذا يعمد إلى المبدأ فيمسه مسا رقيقا ، ثم يعود فيسلك بالعباد مسلك التدرج والترقى فى هذا التشريع حتى يصل بهم إلى غايته . يتجلى ذلك فى المثلين الآتيين فى تحريم الخمر وتحريم الربا ، وقد كانت الخمر عادة متأصلة فى النفوس ، وكان الربا من مقومات أوضاعهم الاجتماعية التى بها وجدت الفارقات بين الطبقات المختلفه . فإن القرآن سالك فى تحريم هذين المنكرين مسلكا تربويا عظيماً . فهو فى مكة ينفرهم من اقتراف هذه المنكرات تنفيراً حسيساً على جهة التلميح والتلويح لا على جهة الجزم والتصريح . فيقول فى سورة النحل المكية فى معرض الامتنان بالنعم والآلاء : (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسنا) فيمتن بالثمرة التى خلقها الله ويلمح لهم بأنهم الذين اتخذوا السكر من هذه النعمه العظيمة ويقابله بالرزق الحسن المحمود . ويفعل مثل ذلك فى سورة الروم حيث يقارن بين الربا وعاقبته الوخيمه وبين الزكاة التى يراد بها وجه الله تعالى ونتيجتها المحمودة فيقول : وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله . وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون) ثم ينتقل فى المرحلة الثانية إلى الذم الصريح للخمر والربا ويبين سوء مغبتهما وما فيهما من إثم كبير ومضرة عظيمه فيقول فى سورة البقرة المدنية : (ويسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما) وفى سورة النساء المدنية : (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً وأخذهم الربا وقد نهوا عنه)

ثم يأتي دور المرحلة الثالثة وفيها يحرم الخمر والربا تحريماً قاطعاً ولكن في صورة جزئية لا تتناول جميع الأحوال، فيقول في سورة آل عمران: (يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون) ويقول في سورة النساء: (يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) حتى إذا كانت المرحلة الرابعة وفيها يشرع التشريع الدائم الخالد ويسن القانون الرادع الزاجر الشامل لكل الصور والأحوال فيقول: (يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين. فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون) ويقول في سورة المائدة: (يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون. إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون).

رابعاً : وهناك نوع من التشريعات عني القرآن بتقرير مبادئه كاملة من أول عهد الدعوة وإن اجتاز في تشريعه بعض المراحل التي اقتضتها الأوضاع القائمة إذ ذاك وهو يشبه أن يكون تشريعاً متدرجاً ، ولكنه في الحقيقة ليس فيه تدرج في ذاته إنما التدرج في تطبيقه على الأوضاع القائمة حسب مقتضياتها .

مثال ذلك : حق الدفاع عن النفس (الجهاد) فلقد قرر الله في كتابه من أول يوم أن سبيل الدعوة إلى الله عز وجل سبيل آمن يسلكه الداعي - وهو رسول الله ﷺ والأئمة من بعده - ملتزماً طريق الحكمة والموعظة الحسنة دون أن يحمل أحداً على اعتناق هذا الدين إلا من طريق الإقناع بالحجة (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) ، (فذكر إنما أنت مذكر ه لست عليهم بمسيطر) ، (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) ، (ما على الرسول إلا البلاغ) . هذا هو المبدأ الأول .

أما المبدأ الثاني : فهو رد العدوان بمثله ، وهو حق فطري إعترفت به جميع الشرائع والقوانين الوضعية ، وهو حق مقرر من أول يوم في الدعوة الإسلامية على أنه حق للفرد والجماعة وهو لا ينافي الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة كما لا ينافي العفو عن المسيء إذا كان العفو يثمر فيه ، بل إنه رغب في العفو مع الاحتفاظ بحق الدفاع عن النفس : (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) ، (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله) ، (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) .

في ضوء هذين المبدأين سارت الدعوة الإسلامية منتهجة طريق الصواب ،

سالكة جادة الحق وإن تغيرت وسائل التطبيق فيها على مراحل أربعة تابعة للفترات التى مرت بالرسول ﷺ وبدعوته .

١ ـ الفترة الأولى بمكة :

نستطيع أن نسمى هذه الفترة فترة موادعة ومسالمة ، لأن المؤمنين فيها كانوا قلة مستضعفين لا يقوون على مجابهة عدوهم وهم سكان الجزيرة العربية قاطبة من مشركين ويهود (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره) سورة الأنفال .

وقد أمرهم الله تعالى فى هذه المرحلة بأن يصبروا على العدوان ولا يحاولون دفعه بالقوة ما استطاعوا إلى الصبر سبيلا وأنى لهم بمحاولة الدفاع عن أنفسهم وهم أفراد قلائل لاقوا من أذى قريش وتعنتها ما لا قبل لهم به (فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره) ، (ألم ترى إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) ، (سيهزم الجمع ويولون الدبر) .

٢ ـ الفترة الثانية فترة الإذن بالقتال :

لما كانت الهجرة واستطاع المؤمنون أن يثبتوا أقدامهم بالمدينة وأن يقيموا شعائر دينهم ، وتكونت منهم نواة الدولة الإسلامية أذن للمهاجرين منهم أن يدافعوا عن أنفسهم ضد الظلم الواقع عليهم من قريش (إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور ، أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله) .

وهنا كانت الاشتباكات الدامية بينهم وبين قريش المعتدية حتى إذا كان

يوم بدر وقد ركبت قريش رأسها لما رأت عزة الإسلام ، وأن الدولة دالت عليهم وصممت على الإنتقام ليوم بدر هنا بدأت المرحلة التالية .

٣ – الفترة الثالثة :

فى هذه الفترة أصبح القتال مفروضاً على المسلمين ضد هؤلاء العتاة ، بعد أن كان مأذوناً فيه للمهاجرين منهم ، وكان هذا القتال مقصوراً على حرب قريش ومن حالفها من بنى بكر وبعض يهود المدينة (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم) .

ظل الأمر بالقتال قاصراً على محاربة هؤلاء المعتدين طوال هذه الفترة ، حتى إذا كان يوم الأحزاب بدأت المرحلة الأخيرة .

٤ – الفترة الرابعة فترة الأمر بالقتال ضد مشركى الجزيرة العربية :

فى هذا اليوم – يوم الأحزاب – استطاعت قريش أن تؤلب الجزيرة العربية على بكرة أبيها واختلاف قبائلها واستعانت بهم على حرب المسلمين والقضاء عليهم فى عقر دارهم : ولم يكن المؤمنين طاقة بمواجهة هذه الجيوش الكثيرة فخندقوا على أنفسهم حول المدينة ، وكان نصر الله لهم فى هذا اليوم نصراً مؤزراً بعد أن زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وزلزل المؤمنون فى هذا اليوم زلزالا شديداً ، وما كان الله ليذرهم على هذه الحال فأرسل على أعدائهم الرياح العاتية والرمال السافية وأيد المؤمنين بجنده فكانت القوة بعد الضعف والعزة بعد الهوان .

عندئذ أمر الله جنده المخلصين أن يقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونهم كافة . وأعلنت الحرب العامة ضد جميع المعتدين قال تعالى : (وقاتلوا المشركين

كافة كما يقاتلونكم كافة)، (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين).

وإذا لنرى الدعوة إلى القتال منذ بدأت فى أول العهد المدنى حتى نهاية التنزيل ليس فيها دعوة إلى قتال مسالم مهما كانت عقيدته.

وإنما هى موجهة ضد المعتدين فى جميع الأدوار التى مرت بها وإن تدرج التطبيق العملى فى سير القتال.

هذا اللون من التشريع وإن اشتمل على تفاصيل دقيقة وحكيمة تحتوى كثيراً من النظم والتشريعات العادلة وتنظم سير الدعوة وتؤمن طريقها وتحمى القائمين بها، لم يجاف المبدأين الذين قررهما فى أول الدعوة - مبدأ الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ومبدأ مقابلة العدوان بمثله - فهو ينتهى كما بدأ مصراً على مبادئه العادلة الحكيمة.

خامساً: تفسير آيات الخمر الواردة فى القرآن الكريم

قال الله تعالى: «ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون» سورة النحل (٦٧).

كان الناس مفتونين بالخمر والميسر حتى إنهما لو حرما من أول الأمر على سبيل القطع لانصرف الكثير ممن هم مدمنون لها عن الإسلام، بل عن التفكير السليم المؤدى إلى الاهتداء به، لأنهم حينئذ ينظرون إليه بعين السخط والتذمر فيرونه بغير صورته الحسنة، فكان من لطف الله تعالى وبالغ حكمته الجليلة أن ذكرها أولا لا على أنها محرمة صراحة، بل على سبيل الإشارة كما فى آية النحل، ثم ذكرها فى سورة البقرة بما يدل على تحريمها لا على القطع، بمعنى أن فيها مجالا للاجتهاد فيتركها من لم تتمكن فتنتها من نفسه، ثم ذكرها فى سورة النساء بما يقتضى تحريمها فى الأوقات القريبة من وقت الصلاة، إذ نهى عن قرب الصلاة فى حال السكر فلم يبق للمصر على شربها سوى الغبوق بعد صلاة العشاء وضرره قليل، وكذا الصبوح بعد صلاة الصبح لمن لا عمل له ولا يخشى امتداد سكره إلى وقت الظهر. ثم تركهم على هذا الحال زمناً قوى فيه الدين ورسخ اليقين وكثرت الوقائع التى ظهر لهم بها إثم الخمر وضررها فناسب النهى عنها على سبيل القطع. وكان ذلك بعد غزوة الخندق على الراجح بأيام. اهـ من المنار والكشاف وأبى السعود.

ولنأخذ الآن فى بيان الآيات وبالله التوفيق.

أما آية سورة النحل فهى تبين أن الناس قد اتخذوا من ثمرات النخيل والأعناب شراباً سكراً — وكان ذلك قبل نزول آيات التحريم الصريحة،

ولذلك نرى القرآن يمتن عليهم ويسوى بين الشراب المتخذ من النخيل والشراب المتخذ من العنب على ما عليه الجمهور من العلماء .

والسكر : الشراب المحرم من ثمرتيهما .

والرزق الحسن : ما أحل من ثمرتيهما كالتمر والدبس والزبيب والخل . والآية تشير إلى الحرمة (١) حيث قابل السكر بالرزق الحسن (٢) والاتخاذ من قبلهم هم . (٣) وتذييل الآية ، كذلك يدل على منافاتها للعقل .

قال أبو السعود : والآية إن كانت سابقة النزول على تحريم الخمر فدالة على كراهتها وإلا فجامعة بين العقاب والمنة . اهـ ويؤول كلامه بعد نزول الآيات الصريحة .

اللغة : « ومن ثمرات النخيل والأعناب ، متعلق بما يدل عليه الإسقاء من مطلق الإطعام الذى ينتظم المطعوم والمشروب . أى ونطعمكم من ثمرات النخيل والأعناب . أو « تتخذون » وأتى بالجار والمجرور للتأكيد . وعلى الأول يكون قوله : « تتخذون » استئناف لبيان كنه الإطعام وكشفه . أو هو خبر لمبتدأ محذوف أى ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه . وناسب ذكر « يعقلون » هنا حيث إن العقل أشرف المخلوقات فى الإنسان ، ولهذا حرم الله الأشربة المسكرة عليه صيانة للعقول ، ومن هنا قالوا : إن الآية وإن لم تكن صريحة فى التحريم لكنها تشير إلى أنها حرام .

ثم قال تعالى : « يسئلونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ... » سورة البقرة (٢١٩) .

سبب نزول الآية : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال ومعه جماعة من الصحابة : اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً فإنها مذهبة للعقل . فنزلت

الآية « يسئلونك عن الخمر والميسر .. » فدعى عمر وقرئت عليه الآية فقال: اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا .. فنزلت « يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى .. » فقال عمر بعد أن قرئت عليه الآية: اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافيا .. فنزلت (يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه .. » فدعى عمر وقرئت عليه فقال: انتهينا[1].

وروى غير هذا: أن عمر ومعاذاً ونفراً من الصحابة سألوا الرسول ﷺ فى حكم الخمر، فنزلت آية البقرة .. فشربها قوم وتركها آخرون . ثم إن عبد الرحمن بن عوف صنع طعاماً ودعا إليه أصحاب رسول الله ﷺ وكان فيهم على بن أبى طالب، فأكلوا وشربوا الخمر - وذلك قبل التحريم - فسكروا وأخذت الخمر منهم، ثم إنه حضرت صلاة المغرب، فتقدم للصلاة عبد الرحمن بن عوف أو على بن أبى طالب فقرأ « قل يأيها الكافرون * أعبد ما تعبدون .. » فنزلت آية النساء، فقل من شربها منهم وكانوا عند حضور أوقات الصلاة يجتنبوها، وكان منادى الرسول ﷺ ينادى عند حضورها « ألا يقربن الصلاة سكران » . ثم إن أحدهم[2] دعا ناساً من الصحابة وكان فيهم سعد بن أبى وقاص، فلما سكروا ذكروا الأنساب وتفاخروا بها، وقالت الأنصار: الأنصار خير، وقالت قريش: قريش خير . وأنشد سعد شعراً فيه هجاء الأنصار، فأهوى أحدهم باحى جرور فضربه على أنفه ففزره - فكان سعد مفزور الأنف - قال سعد: فأتيت النبى ﷺ فذكرت له ذلك فنزلت: « يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر .. » فقال عمر: انتهينا يارب[3].

---

(١) أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى .

(٢) هو عتبان بن مالك .

(٣) ذكره السيوطى فى أسباب النزول عن الإمام أحمد .

هذا : وقوله (يسئلونك) ليس فيه بيان أنهم سألوا عن أى شىء . وقوله
(قل فيهما إثم كبير ...) دل على أن السؤال عن الحل والحرمة . . (1)

ما هى الخمر ؟

الخمر : مأخوذة من خمر إذا ستر ، ومنه خمار المرأة ، ومنه ذلك الشجر
الملتف يقال له : الخمر ، لأنه يغطى ما تحته ويستره ، ولما كانت الخمر تستر
العقل وتغطيه سميت بذلك .

وقيل : سميت بذلك لأنها تركت حتى أدركت ، فيقال : اختمر العجين
إذا بلغ إدراكه ، واختمر الرأى أى ترك حتى يتبين الوجه فيه .

وقيل : إنما سميت بذلك لأنها تخالط العقل ، ومنه قولهم: دخلت فى خمار
الناس . أى : اختلطت بهم .

فالمعانى الثلاثة متقاربة ؛ فالخمر تركت وخمرت حتى أدركت . ثم خالطت
العقل . ثم خمرته . والأصل الستر .. اهـ من القرطبي بتصرف .

وأما عند الفقهاء فهم على خلاف فيها :

(ا) فعند الإمام أبى حنيفة وسفيان الثورى وإبراهيم النخعى وا
أبى ليلى وغيرهم من فقهاء الكوفة أنها الشراب المسكر من عصير العنب فقـ
أما من غيره فلا . . ولا يحرم القليل من غيره إذا أسكر الكثير منه بل
حلال . فإذا سكر من كأسين ولا يسكر من واحدة فالمحرم الثانية فقط
الأولى ، لأن الخمر عندهم من عصير العنب فقط ، أما من غيره فهو
كالتمر والشعير .

---

(1) النيسابورى .

وقد احتجوا بأدلة منها: ما أخرجه الطحاوى عن أبى موسى قال: «بعثنى رسول الله ﷺ أنا ومعاذاً إلى اليمن فقلنا يارسول الله إن بها شرابين يصنعان من البر والشعير أحدهما يقال له: المزر، والآخر يقال له: البتع. فما نشرب؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «إشربا ولا تسكرا»، وذلك لأن قليل الأنبذة ليس بمحرم، حيث إن الله تعالى ذكر فى علة التحريم قوله: (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة) فوجب لهذه العلة ألا يحرم من المسكرات إلا القدر المسكر، ثم إن الإجماع قد انعقد على تحريم الخمر قليلها وكثيرها فيبقى قليل النبيذ على الأصل من الإباحة.

(ب) وعند الإمام مالك والشافعى وأحمد والحجازيين: أن الخمر كل مسكر من عصير العنب وغيره ... «وما أسكر كثيره فقليله حرام» مطلقاً.

والحق فى جانب الحجازيين فقد قال الرسول ﷺ فيما يرويه عنه النعمان ابن بشير: «إن من الحنطة خمراً، ومن الشعير خمراً، ومن الزبيب خمراً. ومن التمر خمراً، ومن العسل خمراً» رواه الخمسة إلا النسائى. زاد أبو داود وأحمد «وأنا أنهى عن كل مسكر».

وعن أبى موسى قال: قلت يا رسول الله أفتنا فى شرابين كنا نصنعهما باليمن: البتع — وهو من العسل — ينبذ حتى يشتد، والمزر — وهو من الذرة والشعير — ينبذ حتى يشتد، قال: وكان رسول الله ﷺ قد أعطى جوامع الكلم بخواتمه، فقال: «كل مسكر حرام» متفق عليه.

وعن ابن عمر أن عمر قال على منبر النبى ﷺ: «أما بعد: أيها الناس إنه نزل تحريم الخمر وهى من خمسة: من العنب، والتمر، والعسل، والحنطة والشعير، والخمر ما خامر العقل» متفق عليه.

والصحابة - رضوان الله عليهم - لما سمعوا تحريم الخمر فهموا منه تحريم الأنبذة ، وهم أعرف الناس بمراد الشارع ولغة العرب ، وقد ثبت ذلك من حديث أنس رضى الله عنه قال : « إن الخمر حرمت والخمر يومئذ البسر والتمر » متفق عليه .

وفى لفظ قال : « حرمت علينا حين حرمت وما نجد خمر الأعناب إلا قليلا وعامة خمرنا البسر والتمر » رواه البخارى . ، ثم إن علة تحريم الخمر موجودة فى غيره أيضاً ، فإما أن يجب القطع بأن كل مسكر خمر ، وإما أن يلزم الحكم بالحرمة فى كل مسكر[1] . إذن فالأنبذة محرمة قطعاً لهذه النصوص ولإجماع الصحابة رضوان الله عليهم فما أسكر كثيره فقليله حرام .

هذا . وقد ذهب بعض الأئمة : إلى أن الخمر حرمت بهذه الآية ، وأن ما أتى بعدها توكيد ، لأن الإثم يفيد التحريم ، قال تعالى : (قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم) الآية . . فهذه الآية تخبر أن فيها إثماً فهى حرام ، فالمتأمل فى الآية يجد أنها تقول : « قل فيهما إثم » فالإثم الذى فيها هو الحرام اهـ . قرطبى .

ثم قال تعالى : (قل فيهما إثم كبير) ، (ومنافع للناس) .

أما إثم الخمر : فما يصدر عن شاربها من فحش الكلام وبذىء الألفاظ ، والمخاصمة ، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وزوال العقل الذى به يعرف ما يجب للخالق سبحانه ، ثم إن الشارب يصير أضحوكة للعقلاء وربما يتصرف كتصرف المجانين ، فلقد شـوهد بعضهم يمسح ببوله وجهه ويقول : اللهم

---

(١) عن النيسابورى .

اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين . وروى بعضهم والكلب يلحس وجهه وهو يقول : أكرمك الله .

ومن مضرات الخمر الصحية إفساد المعدة وسرعة سريان التشوه لمتعاطيها وجحوظ عينيه . وقد قرر أحد الأطباء الألمان أن ابن الاربعين منهم يكون نسيج جسمه كنسيج جسم ابن الستين ، ويكون كالهرم جسما وعقلا . ومنها : مرض الكبد والكلى ومرض السكر الذى يضعف القوة العقلية عندهم وكثيراً ما ينتهى بالجنون . وكذلك مرض السل الذى ينتشر بينهم بشكل كبير .

وقال أحد الأطباء : إن ممازجة الخمر للدم تعوق دورته وقد توقفها فجأة فيموت السكير . اهـ .

ومن مضراتها المالية : استنزاف المال واستنزاف الثروات . ومن هنا سميت الخمر « أم الخبائث » .

وأما نفعها : فأصحها التجارة والربح الوفير ، فإنهم كانوا يجلبونها من الشام بثمن بخس ، ويبيعونها فى الحجاز بربح هائل ، وكانوا لا يرون المماكسة فيها فيشترى طالب الخمر الخمر بالثمن الغالى ، هذا أصح ما قيل فى منفعتها . اهـ من القرطبى .

وقال الطبرى : إن منافع الخمر كانت أثمانها قبل تحريمها وما يصلون إليه بشربها من اللذة . كما قال الأعشى فى صفتها :

لنا من ضحاها خبث نفس وكآبة   وذكرى هموم ما تفك أذاتها
وعند العشاء طيب نفس ولذة   ومال كثير عده نشواتها

قيل : ومن منافعها أيضاً أنها تهضم الطعام ، وتقوى فى الباه ، وتسخى البخيل ، وتدر البول ، وتصفى اللون ، وتشجع الجبان .

قال حسان بن ثابت رضى الله عنه :

ونشربها فتتركنا ملوكا　　　وأسدآ ما ينهنهنا[1] اللقاء

حكم التداوى بها :

قال بعضهم : إنها قد تكون علاجاً لبعض الأمراض ، ولكن فى سنن أبى داود : « إن الله أنزل الداء والدواء ، وجعل لكل داء دواء ، فتداووا ولا تداووا بحرام » .

ومن فتاوى الشيخ محمد عبده رحمه الله : جواز التداوى بها بشرط ألا يقصد المتداوى بها اللذة والنشوة ، ولا يتجاوز مقدار ما يحدده الطبيب المسلم الورع ، والضرورات تقدر بقدرها[2] . أما دخول نقط منها فى الدواء . أى أن الخمر تكون عنصراً من عناصر علاج مركب وأجزاء الخمر فيه مغلوبة لاغالبة وليس من شأنها أن تسكر فهو كالقليل من الحرير فى الثوب[3] .

قال تعالى : (وإثمهما أكبر من نفعهما) .

أى أن المفاسد المترتبة على تعاطيهما أعظم من الفوائد المترتبة عليه — وإنما كان ذلك فى الخمر ، لأنهم كانوا إذا سكروا وثب بعضهم على بعض وقاتل بعضهم بعضاً . وعن ابن عباس : مايذهب من الدين والإثم فيه أكبر مما يصيبون فى فرحها إذا شربوها . . أه طبرى .

---

(١) أى ما يمنعنا .
(٢) المنار .
(٣) كتاب الحلال والحرام فى الإسلام ليوسف القرضاوى .

وفى النيسابورى : « ولا ريب أن منافع الخمر والميسر لكونها مظنونة عاجلة أقل من إثمهما . لكونه متيقن الحساب الدائم العذاب ، والعاقل لا يختار النفع القليل الزائل بعقاب أبدى لا نهاية له » .

وفى تفسير المنار : « هذه الآية إرشاد للمؤمنين إلى طريق الاستدلال ، فكان عليهم أن يهتدوا منه إلى قاعدة : درء المفاسد مقدم على جلب المصالح وقاعدة ترجيح ارتكاب أخف الضررين إذا كان لا بد من أحدهما » اهـ بتصرف .

ثم قال الله تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ...) النساء (٤٣) .

قال أبو داود والترمذى وحسنه وكذا النسائى والحاكم وصححه فى سبب نزول هذه الآية :

عن على — كرم الله وجهه — قال : « صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت منا ، وحضرت الصلاة فقدمونى ، فقرأت : قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، ونحن نعبد ما تعبدون ، فنزلت » .

وفى رواية ابن جرير وابن المنذر عن على : « أن إمام القوم يومئذ هو عبد الرحمن ، وكانت الصلاة صلاة المغرب ، وكان ذلك لما كانت الخمر مباحة » .

وسبب النزول هذا يعين أن المراد من الصلاة حقيقتها ، خلافاً لما قاله

بعضهم من أن المراد مواضع الصلاة، ولما قال بعضهم من حمل اللفظ على الأمرين معاً جمعاً بين الحقيقة والمجاز.

قال أبو السعود: ويأباه قوله تعالى: (حتى تعلموا ما تقولون) فالمعنى لا تقيموها فى حال السكر حتى تعلموا قبل الشروع ما تقولونه، إذ بتلك التجربة يظهر أنهم يعلمون ما سيقرءونه فى الصلاة. اهـ.

هذا ... وقد قال بعضهم: إن الآية تدل على جواز التكليف بالمحال بل على وقوعه، حيث إن الأمر قد وجه إلى السكران وهو فى غير وعيه.

والرد على هذا قال الشيخ رشيد رضا: والجواب عنه من وجوه:

(أحدها): أن الخطاب موجه إلى المسلم قبل السكر بأن يجتنبه إذا ظن أنه يفتهى به إلى التلبس بالصلاة فى أثنائه، فهو أمر بالإحتياط واجتناب السكر فى أكثر الأوقات.

ولذا قال العلماء: إن هذه الآية تمهيد لتحريم الخمر قطعياً، فإن من يتقى شربها خوفاً من دخول وقت الصلاة يتركها عامة نهاره وأول الليل، ويصبح وقد زال عنه السكر.

(ثانيها): أن الأمر موجه إلى جمهور المكلفين لأنهم متكافلون وعليهم أن يمنعوا السكران من الدخول فى الصلاة.

(ثالثها) أن السكر الذى يطلبه الهواة لا ينافى الفهم، بل هو للنشوة والسرور، فى هذه الحالة يفهم السكران الخطاب، وإن كان لا يستطيع أن يضبط أعماله ولا أن يجمع أفكاره .. اهـ. بتصرف.

اللغة: (حتى، للغاية. وهذا يدل على وجوب معرفة اللغة وفقهها على كل مسلم لفهم ما يقول فى الصلاة: وقيل (حتى) للعلة.

وتصدير الآية بحرفي النداء والتنبيه : المبالغة في حملهم على العمل بموجب النهي . . اهـ أبو السعود .

وقوله : (حتى تعلموا ما تقولون) هذا أحسن ما يقال في حد السكران من أنه الذي لا يدري ما يقال ، ولذا قال أبو حنيفة : إنه الذي لا يفرق بين الأرض والسماء .

ثم قال تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ◦ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ◦ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين ◦ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا اذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين) المائدة (٩٠ - ٩٣) .

مناسبة الآيات لما قبلها :

ذكر الله تعالى فيما قبل من الآيات حل الطيبات وإباحة الأكل من الحلال بقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ◦ وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون) . . . الآيتان (٩٠ — ٩١) . وكانت الخمر والميسر من الطيبات عندهم ثم هذه الآيات تبين أنهما غير داخلين في جملة الطيبات ، بل هما من المحرمات .

وبين الله فى هذه الآيات أن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس مستقذر تعافه الطباع السليمة والعقول التى أصابها قبس من نور .

سبب نزول الآيات :

فى مسند الإمام أحمد وسنن أبى داود والنسائى والترمذى أن عمر كان يدعو قائلا : « اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً » . . الحديث . . وفيه أنه لما نزلت آية المائدة دعى فقرئت عليه فلما بلغ قول الله تعالى : (فهل أنتم منتهون) قال : انتهينا انتهينا .

وعن ابن عباس قال : إنما نزل تحريم الخمر فى قبيلتين من قبائل الأنصار شربوا فلما ثملوا عبث بعضهم ببعض ، فلما أن صحوا جعل الرجل منهم يرى الأثر بوجهه ورأسه ولحيته ، فيقول : صنع بى هذا أخى فلان ، وكانوا إخوة ليس فى قلوبهم ضغائن ، والله لو كان رءوفا رحيما ما صنع بى هذا ، حتى وقعت الضغائن فى قلوبهم ، فأنزل الله هذه الآية . . . فقال ناس من المتكلفين : هى رجس وهى فى بطن فلان قتل يوم بدر ، وفى بطن فلان قتل يوم أحد فأنزل الله : (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح . . .) رواه ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والبيهقى ، والحاكم وصححه .

وروى غير هذا فى سبب النزول ما تقدم من رواية ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وغيرهم من أنها نزلت فى سعد بن أبى وقاص . . . قال سعد : « فى نزل تحريم الخمر » . صنع رجل من الأنصار طعاماً فدعانا فأتاه ناس فأكلوا وشربوا حتى انتشوا من الخمر — وذلك قبل تحريم الخمر — فتفاخروا فقالت الأنصار : الأنصار خير ، وقالت قريش :

قريش خير . . فأهوى رجل بلحى جزور - أو لحى بعير - فضرب على أنف ففزره - فكان سعد مفزور الأنف - قال : فأتيت النبي ﷺ فذكرت له ذلك فنزلت هذه الآية .. فقال عمر : انتهينا يا رب .

اللغة : (رجس) : أى قذر تعاف عنه العقول . وإفراده لأنه خبر الخمر وخبر المعطوفات عليه محذوف ثقة بالمذكور . أو المضاف محذوف أى شأن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس (من عمل الشيطان) : محله الرفع على انه صفة رجس أى كائن من عمله لأنه سبب من تسويله وتزيينه (فاجتنبوه) أى إذا كان الأمر كما ذكر فاجتنبوه . والضمير يعود إلى المذكور أو إلى الرجس (لعلكم) معناها الترجى أو التعليل . اه . أبو السعود .

وقوله : (إنما يريد الشيطان . .) تقرير للنهى عن تعاطى المذكور ، وهو إشارة إلى مفاسد الخمر والميسر الدنيوية . وقوله (ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة) إشارة إلى مفاسدها الدينية .

قوله (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) عطف على فاجتنبوه .

قوله (جناح) أى إثم وحرج (طعموا) أى تناولوا أكلا وشربا ، وطعم يستعمل بمعنى شرب أيضاً ، قال تعالى (ومن لم يطعمه فإنه منى) . اه أبو السعود .

الشرح :

ينادى الله الذين آمنوا مصدرا النداء بحرف التنبيه إجلالا لما يأتى من حكم من ترك الخمر والميسر اللذين استقرا فى النفوس وصار من العسير اقتلاعهما ، إلا بحكمة وروية من الله الذى فطر الأنفس ، وكانت هذه الآية فى مرتبة ثالثة بعد آيتى البقرة والنساء ، ولما نزلت آيتنا هذه قال عمر :

. أقرنت بالميسر والأنصاب والأزلام ؟ بعداً لك وسحقاً ، فتركها الناس ، ووقع فى الصدور منها ، وقالوا ما حرم الله علينا شىء أشد من الخمر ، حتى جعل الرجل يلق صاحبه فيقول : إن فى نفسى شيئاً ، فيقول صاحبه : لعلك تذكر الخمر ! فيقول : نعم ، فيقول : إن فى نفسى مثل ما فى نفسك . اه منار .

يقول : يأيها الذين آمنوا إنما الخمر وكل ما يخامر العقل ويخالطه والميسر والقمار والأنصاب والأزلام وهما الحجارة التى كانوا يذبحون قرابينهم عندها والقطع الخشبية المصنوعة تفاؤلا أو تشاؤماً : رجس مستقذر كائن من عمل الشيطان ، فاجتنبوا هذا الرجس واجتنبوا كل ما ذكر رجاء أن تفوزوا بتزكية أنفسكم وتحليتها بذكر ربكم والبعد عن الأحقاد والضغائن ، وتعاطى هذا يصد عن ذكر الله وعن الصلاة فانتهوا وأطيعوا الله ورسوله فيما أمرا به ونهيا عنه ومن ذلك الخمر والميسر بالأولى .

وترى القرآن يقرن الرذائل المالية الاجتماعية ـ الخمر والميسر ـ بالأنصاب والأزلام وهما من الرذائل الاعتقادية ، وسوى بينهما فى القذارة ووجوب البعد عنها ، وأن كل ذلك لا يليق شىء منها بأهل الحنيفية البيضاء .

وبعد أن ذكر الله العلة الدنيوية والعلة الدينية للتحريم قرن ذلك بقوله : (فهل أنتم منتهون) ؟ استفهام يتضمن الأمر بالانتهاء ، وهذا من أبلغ ما ينهى به .

وذكر الكشاف وجوهاً تؤكد تحريم الله تعالى للخمر والميسر استمدها من الآيتين ، منها :

١ ـ جعل الله تعالى الخمر والميسر رجساً ، وهى كلمة تدل على منتهى القبح والخبث .

٢ - صدر الجملة بإنما الدالة على الحصر .

٣ - قرنها بالأنصاب والأزلام وهما من خرافات الشرك وأعمال الوثنية .

٤ - جعلهما من عمل الشيطان وهو موجب لغضب الرحمن تعالى .

٥ - جعل الأمر بتركهما من مادة الاجتناب ، وهو يفيد الأمر بالترك مع البعد عن المتروك ، بأن يكون التارك فى جانب بعيد عن جانب المتروك .

٦ - جعل اجتنابهما مرجاة للفلاح ، إذن فارتكابهما أس الخسران وموجب للخيبة فى الدنيا والآخرة .

٧ - جعلهما مثاراً للعداوة والبغضاء ، وهما أصل المعاصى على اختلاف أنواعها .

٨ - جعلهما صادين عن ذكر الله وعن الصلاة وهما مخ العبادة وعمود الدين .
٩ - الأمر بالابتعاد عنهما بصيغة الاستفهام المقرون بفاء السببية .

١٠ - الأمر بطاعة الله والرسول ، والتحذير من مخالفتهما ، والوعيد والتهديد لمن تولى وأعرض . اهـ .

هذا . . ولم يؤكد القرآن مثل هذه التأكيدات فى شىء حرمه مثلما فعل فى الخمر والميسر ، وذلك لشدة ولوع الناس بهما ، حتى كانوا يؤولون ما يمكن أن يتطرق إليه الاحتمال من أحكام تخالف أهواءهم .

نعم أجابت الصحابة نداء الله تعالى وحرموا على أنفسهم الخمر تحريماً قاطعاً لا هوادة فيه ، وحرموا على أنفسهم التعامل بها بأى وجه من وجوه المعاملات ، وروى الترمذى وابن ماجه أن رسول الله ﷺ لعن فى الخمر

عشرة: «عاصرها ومعتصرها وشاربها وحاملها والمحمولة إليه وساقيها وبائعها وآكل ثمنها والمشترى لها والمشترى له»، وقال الترمذى حديث غريب.

بل حرم الرسول ﷺ أن تهدى الخمر ولو ليهودى: فقد روى الحميدى فى مسنده عن أبى هريرة رضى الله «أن رجلا كان يهدى للنبى ﷺ راوية خمر فأهداها إليه عاماً وقد حرمت. فقال النبى ﷺ: إنها قد حرمت، فقال الرجل: أفلا أبيعها؟ فقال: إن الذى حرم شربها حرم بيعها، قال أفلا أكارم بها اليهود؟ قال: إن الذى حرمها حرم أن يكارم بها اليهود. قال: فكيف أصنع بها؟ قال: شنها على البطحاء (١)». اهـ. نيل الأوطار جـ ٨ ص ١٧٥.

بل أكثر من ذلك ما علم من أن الإسلام يتبع طريقة سد الذرائع إلى الحرام، ولذا حرم على المسلم أن يبيع العنب لمن يعرف أنه سيعصره خمراً. روى الطبرانى فى الأوسط وحسنه الحافظ بن حجر فى بلوغ المرام حديث «من حبس العنب أيام القطاف حتى يبيعه من يهودى (٢) أو نصرانى أو ممن يتخذه خمراً (٣)، فقد تقحم النار على بصيرة».

وعلى هذه السنة أمرنا الإسلام أن نقاطع مجالس الخمر. فقد روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقعد على مائدة تدار عليها الخمر».

ويروى عن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه: أنه كان يجلد شاربى الخمر ومن شهد مجالسهم وإن لم يشرب معهم. ولما رفع إليه قوم شربوا الخمر أمر بجلدهم، فقيل له: إن فيهم فلاناً وقد كان صائماً؟ فقال: به ابدأوا.

---

(١) هذا الأثر يدل على حرمة التعامل فى الخمر مطلقاً وفى كل الأحوال حتى مع غير المسلمين.

(٢) أى ليهودى.

(٣) أى ولو كان مسلماً.

أما سمعتم قول الله تعالى : (وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها ، فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره . إنكم إذاً مثلهم . . » .

جزاء من شرب الخمر :

قرن الله تعالى شرب الخمر ولعب الميسر بالأنصاب والأزلام وحكم عليها جميعاً بأنها رجس ، إذن فهى مثلها فى الإثم . وهنا يوردون حديثاً رواه ابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مدمن الخمر كعابد وثن » .

وروى الطبرانى فى الكبير من حديث عبد الله بن عمر : « الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر ، ومن شرب الخمر ترك الصلاة ووقع على أمه وخالته وعمته » .

وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « من شرب الخمر فى الدنيا ثم لم يتب منها حرمها فى الآخرة » رواه الجماعة إلا الترمذى .

وروى أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » .

هذا . . . وقد كان يؤتى بالشارب فى عهد النبى ﷺ « فيضرب بالأيدى والجريد وبالثياب والنعال » .

وفى حديث أنس عند أحمد والترمذى وأبى داود ومسلم : « أن النبى ﷺ أتى برجل قد شرب الخمر فجلد بجريدتين نحو أربعين . قال وفعله أبو بكر .

فلما كان عمر استشار الناس فقال عبد الرحمن : أخف الحدود ثمانون . فأمر به عمر » .

وفى الصحيحين عن علىّ كرم الله وجهه : ما كنت لأقيم على أحد حداً فيموت وأجد فى نفسى شيئاً . إلا صاحب الخمر ، فإنه لو مات وديته . وذلك أن رسول الله ﷺ لم يسنه » . وروى الدارقطنى عن على رضى الله عنه قال : « إذا شرب سكر وإذا سكر هذى وإذا هذى افترى وعلى المفترى ثمانون جلدة » .

وكان عثمان بن عفان يقول : « اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث ، إنه كان رجل فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس ، فعلقته امرأة غوية ، فأرسلت إليه جاريتها أن تدعوه لشهادة ، فدخل معها ، فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دونه ، حتى أفضى إلى امرأة وضيئة عندها غلام وباطية خمر ، فقالت : إنى والله ما دعوتك لشهادة ولكن دعوتك لتقع على أو تقتل هذا الغلام أو تشرب هذا الخمر . فسقته كأساً فقال زيدونى . فلم يرم حتى وقع عليها وقتل النفس . فاجتنبوا الخمر فإنها لا تجتمع هى والإيمان أبداً إلا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه » رواه البيهقى .

من هذه الآثار نعلم تشديد الإسلام فى الخمر ، وكيف أن الصحابة رضوان الله عليهم اجتهدوا فى حد الشارب . وأن النبى ﷺ لم يسن حد الخمر . لأن ضربه أربعين مرة واحدة لا يعد سنة محدودة له مع مخالفته غيره مرة . وإنما صار سنة عملية لجرى أبى بكر عليه . ويستفاد من الروايات أن المشروع فى العقاب الضرب قصد الإهانة للشارب وتنفير الناس من الشرب . اهـ . من المنار ملخصاً .

ثم قال تعالى :

« ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين » . المائدة (٩٣) .

لما أنزل الله تعالى تحريم الخمر بعد غزوة الأحزاب قال رجل من أصحاب النبي ﷺ : أصيب فلان يوم بدر وفلان يوم أحد وهم يشربونها ، ونحن نشهد أنهم في الجنة . . .

وفي رواية « اصطبح ناس الخمر من أصحاب النبي ﷺ » ثم قتلوا شهداء يوم أحد ، فقالت اليهود : فقد مات بعض الذين قتلوا وهي في بطونهم ، فأنزل الله تعالى « ليس على الذين آمنوا . . . الآية » أي : ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات إثم فيما أكلوا أو شربوا ، إذا اتقوا أن يكون في ذلك شيء من المحرمات ، وإلا لم يكن نفي الجناح في كل ما طعموه بل في بعضه ولا محذور فيه ، واستمروا على الإيمان والأعمال الصالحة ، ثم اتقوا ما حرم عليهم بعد ذلك مع إباحته فيما سبق ، وآمنوا بتحريمه واستمروا على هذا الإيمان ، ثم اتقوا عما كان مباحاً من قبل وعملوا الأعمال الحسنة .

وليس تخصيص هذه المرات بالذكر لتخصيص الحكم بها بل لبيان التعدد والتكرر بالغاً ما بلغ . . . وقيل : التكرير باعتبار الأوقات الثلاثة . . . أو باعتبار الأحوال الثلاث : استعمال الإنسان التقوى بينه وبين نفسه

وبينه وبين الناس وبينه وبين الله عز وجل ، ولذا جيء بالإحسان في الكرة الثالثة بدل الإيمان ... أو التكرير باعتبار المراتب الثلاث : المبدأ والوسط والمنتهى ...

وقيل : التكرير لمجرد التأكيد كما في قوله تعالى : « كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون » .... « والله يحب المحسنين » تذييل مقرر لمضمون ما سبق . اهـ . أبو السعود .

سادساً : القرآن والأسرة

إن القرآن الكريم اهتم بالأسرة أبلغ اهتمام ، لأنها الدعامة الأولى التى يشيد عليها صرح المجتمع الإنسانى الكبير ، وهى المقياس الذى يحكم به على أى مجتمع من المجتمعات بالصلاح ، أو الانهيار ، وبالقوة ، أو الضعف .

لذلك نرى القرآن الكريم يحافظ على الأسرة من مبدأ تكوينها ، ويحوطها بسياج منيع من التعاليم والآداب التى تكفل بقاءها فى أمان وازدهار ، تظلها السعادة والهناء حتى تؤدى دورها فى المجتمع الكبير .

بيد أن هذا الموضوع متعدد الجوانب متشعب المناحى ، لذلك رأينا أن نقصر بحثنا على النقاط التالية :

١ — اهتمام الإسلام بالأسرة .

٢ — حقوق كل من الزوجين قبل الآخر .

٣ — تعدد الزوجات فى القرآن الكريم .

٤ — حقوق الأبناء على الآباء ، وحقوق الآباء على الأبناء .

٥ — علاج القرآن لمشاكل الأسرة .

١ — تكوين الأسرة

خلق الله المرأة من الرجل ، وأودع فى كل منهما ميلا إلى الآخر . قال تعالى
(هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها) .
سورة الأعراف .

والله تعالى العليم بنفوس عباده لم يدع هذا الميل يجمح بكل من الرجل والمرأة ، بل أراد أن يحوطه بتشريع دقيق حكيم .

تصان فيه الأنساب عن الاختلاط ، وتحفظ فيه الأعراض عن الانتهاك لتحقق حكمة الله تعالى فى اختياره الإنسان خليفة فى الأرض .

لذلك شرع الله الزواج وأمر به فى كتابه العزيز فى أكثر من موضع .
قال تعالى : (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم) سورة النور ، وهذه الآية لم تفرق فى الأمر بالنكاح بين حر وعبد ، وذلك إذا توفرت فيهم أهلية النكاح ، وتوفرت لهم مؤنه .

ولم يكتف الإسلام بالأمر بالنكاح بل رغب فيه وحض عليه ، وجعله من أعظم النعم التى امتن بها على الإنسان من لدن آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، لأن فى ذلك تحقيقاً لمصالح عظيمة للإنسان ، ففيه طلب النسل ، وتحصين المؤمنين عن كل ما يغضب الله تعالى ، وإن شئت فقل : إن فيه ما يحمل على تقوى الله تعالى . قال تعالى : (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء)
سورة النساء .

وقد حرص القرآن على طلب الزواج فى أكثر من موضع ، فتراه

يسلكه فى عداد النعم الكونية وغير الكونية التى استدل بها على وجود الله سبحانه وتعالى ووحدانيته . قال تعالى (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ، ورزقكم من الطيبات). سورة النحل. وقال : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) سورة الروم .

فأنت ترى أن الله تعالى امتن على الإنسان فى هذه الآية بثلاث نعم :

أولا : خلق له زوجا .

ثانياً : جعله يسكن إليها .

ثالثاً : جعل بينهما المودة والرحمة .

وذلك يدل بوضوح على ترغيب الإسلام فى الزواج ، ودعوته إليه بشتى الوسائل .

وقد بنى الإسلام العلاقة بين الزوجين على حسن العشرة وكريم المودة ، فاعتبر كلا من المرأة والرجل مخلوقين لهما كرامتهما ،

قال تعالى : (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف) . سورة البقرة ، كما أمر بعدم إضرار المرأة من قبل زوجها أو غيره . قال تعالى : (لا تضار والدة بولدها ، ولا مولود له بولده) سورة البقرة .

٢ ـــ حقوق كل من الزوجين على الآخر

حقوق الزوجة : أوجب الله تعالى حقوقاً كثيرة على الزوج لزوجه ، وأول هذه الحقوق التى تنشأ مع بدء الحياة الزوجية هو الصداق ، وقد شرعه الله تعالى تنمية للصلة بين الزوجين وتأكيداً لعوامل الألفة والمحبة بينهما . وقد جعل الله تعالى هذا الصداق حقاً خالصاً للمرأة يقدمه الزوج فى مبدأ الزواج ، وحرص على تسميته فى العقد حتى تتحدد العلاقات بينهما على ضوئه ، ويعلم الزوج أنه المسئول عن جميع الالتزامات المالية الخاصة بالأسرة . قال تعالى (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة) سورة النساء . كما اعتبره ملكاً خاصاً بالمرأة ، فلا يجوز لزوجها أن يأخذ منه أى شىء إلا عن طيب نفس منها . قال تعالى (فإن طبن لكم عن شىء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً) سورة النساء .

كما نهى الله تعالى الزوج عن التحايل لأخذ ما أعطاه لزوجه من صداق مهما كانت الأسباب ، قل صداقه أو كثر . قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ، ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن) سورة النساء .

فأنت ترى أن الله تعالى نهى أن يتزوجن قسراً وقهراً ، كما نهى عن أخذ شىء من صداقهن إلا فى حال نشوزهن ، فللزوج حينئذ أن يطلب المهر أو بعضه خلعاً . على أن الزوج إذا أراد أن يستبدل بها زوجاً آخر فلا يجوز له أن يأخذ شيئاً من مالها ، وكيف يصح له هذا وقد أفضى كل منهما إلى الآخر واطلع كل منهما من صاحبه على ما لا يحل للأب أو الأم أو الابن أن يطلع عليه . قال تعالى : (وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن

قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً ، وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً) سورة النساء .

وقد أوجب الله على الزوج حقوقاً أخرى غير الصداق ، كالنفقة والسكنى واعتبرهما حقاً واجباً من الزوج لزوجه ، لأنها حبست نفسها من أجله ، كما جعلهما يخضعان لحال الزوج يساراً وإعساراً . قال تعالى : (لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها) سورة الطلاق .

وقد حث الإسلام الزوج على تربية زوجه وتأديبها وتعليمها أمر دينها حتى لا يستبد بها الشيطان وحتى تقوم بتربية أولادها بأقوم سبيل . وقد أمر الله تبارك وتعالى كلا من الزوجين أن يكون أميناً فى حق الآخر ، ماله وعرضه فى حال غيبته وحضوره .

حقوق الزوج على زوجته : يجب على المرأة حقوق تؤديها لزوجها وهى تنحصر فى طاعته فى كل ما يأمر به مما لا يتعارض مع الشرع ومبادئه . وهذه الطاعة سببها شيئان :

الأول : خلقى ، وذلك بأن أودع الله فى الرجال القوة والعزم والبصر بعواقب الأمور والقدرة على التنفيذ ، فهم يرجعون فى كل أمورهم إلى عقولهم وما أودع الله فيهم من حكمة وبصيرة ، بينما تتغلب على المرأة عواطفها ، وقد يكون لها من الأثر فى تصرفاتها ما يخرجها عن وجه الصواب والحكمة ، فهى تميل مع عواطفها أينما مالت ؟ وإلى ذلك أشار القرآن الكريم بقوله : (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض) سورة النساء .

الثانى : كسبى، وذلك لأن الرجل ـ كما سبق بيانه ـ هو القائم بالإنفاق على الزوجة والأسرة، فكانت الرئاسة له، لقوله تعالى: (وبما أنفقوا من أموالهم)

تلك هى الأسباب التى أوجب الشرع من أجلها طاعة المرأة لزوجها، فعليها أن تحفظ له ماله وتصون له عرضه ولا تمنع نفسها إذا طلبها، وأن تقوم على شئونه بما يدخل فى دائرة بيتها.

وقد أفاضت السنة المطهرة فى بيان الحقوق التى تجب على الزوجة والزوج بما يجعل الحياة الزوجية تظلل بالسعادة والهناء.

٣ ـ حكم تعدد الزوجات

إن الإسلام بزغ نوره فى العالمين وقد استبدت بالناس شهواتهم الكثيرة، ومن هذه الشهوات ما يدفع إلى الانحراف فى إشباع غريزته، ويجعله يتطلع إلى أكثر من امرأة، وكان الناس فيما مضى يسرفون فى ذلك الأمر بلا حساب فوضع الإسلام لذلك حدوداً، وحد من تلك الشهوات العارمة ووقف منها موقف الطبيب يعطى من الدواء بقدر ما يزيل الداء، فأباح تعدد الزوجات وشرط أن لا يزيد الرجل عن أربع، وأن يعدل بينهن، ولم يكتف بذلك بل جعل مجرد الخوف من عدم القيام بالعدل بين الزوجات مانعاً من التعدد قال تعالى: (فإن خفتم أن لا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع • وإن خفتم الا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم) سورة النساء.

كما شرط القدرة على الإنفاق عليهن وإعفافهن فى إباحة التعـــدد ، وقد راعى الإسلام اعتبارات عديدة من أجلها أباح تعدد الزوجات وهى :

أولا : اعترافه بالطبيعة البشرية ، فقد يميل الرجل إلى امرأة أخرى غير زوجته ولا يجد من نفسه القوة لدفع هذا الميل ، ولو طلق الأولى للحقه ضرر كثير بعد أن تشابكت مصالحهما ، وأيضاً قد تفضل الأولى الشركة فى زوجها عن الحرمان الكلى .

ثانياً : قد تصاب المرأة بمرض يمنعها من القيام بأعباء الزوجية ، وقد تكون عقيما لا تلد ، وطلب النسل من أهم ما يبتغيه الرجال والنساء ، وقد يكون فى الزوجة الأولى من الوفاء ما يحمل زوجها على الحفاظ عليها ، وفى نفس الوقت يجد رغبته الملحة فى طلب الولد وقضاء الوطر ، فلو لم يبح الإسلام التعدد لكان فى ذلك ضرر وأى ضرر له ، وكان فيه أيضاً تضييع للمرأة إذا استجاب الرجل لرغباته وطلقها وخصوصاً أن أمرها قد انكشف وما فيها من عيب قد ظهر بما يصرف الناس عن زواجها .

ثالثاً : قد تصاب الأمة بحروب تحصد فيها الرجال حصداً وتتأيم النساء ، فأراد الإســلام أن يفتح لهؤلاء الأيامى باباً يحصلن منه الحلال ، ويمنعهن من الوقوع فى الحرام ، وفرق كبير بين الحياة الزوجية الشريفة ، وبين المخادنة أو مغالبة النفس على الكره والألم ، ففى المخادنة إهدار لكرامتها ، وفى الثانية إعنات للنفس وحرج لها ، والله يقول : (ما جعل الله عليكم فى الدين من حرج) سورة الحج .

لهذه الأسباب وغيرها أباح الإســــلام تعدد الزوجات وهو مفخرة من مفاخره ، لأن فيه توسعاً لدائرة الحلال وغلق لأبواب الفتنة والفساد .

والحق أن المعارضة لهذا المبدأ ظهرت يوم أن تهاون الناس فى أمر دينهم وقلدوا الغرب فى سفاحه . وقد أثبتت الأيام صواب ما عناه الإسلام . ففى ألمانيا حين أكلت الحرب الرجال وتأيمت النساء وأصبحن فى حاجة إلى داع يدبر شئونهن طالبن بتعدد الزوجات ، وقد قرأت فى سنة ١٩٥٠ م عرض الألمانيات أنفسهن للزواج من أى رجل فى العالم بشرط أن ينتقل معهن ليعيش فى وطنهن على أن يدبرن له العمل اللازم لإعاشته وحاجاته .

هذا ما حدث فى ألمانيا ، ولكن تعالوا معى هنا فى مصر الإسلامية تروا عجباً عجاباً ، فقد أثار المبطلون شبهاً على الإسلام وعلى نظامه فى تعدد الزوجات وهو إن دل على شىء فإنما يدل على الحقد والكيد للإسلام ومبادئه . فقالوا : إن التعدد فى الإسلام كلا تعدد ، فإباحته نظرية ، لأن الإسلام بناه على محال حيث جعله معلقا على العدل ، وقد أخبر الله بأن العدل بينهن غير ممكن ولا مستطاع ، وعلى هذا فتعليق التعدد على غير الممكن يجعله غير مباح .

والواقع أنهم أخطأوا فى فهم العدل المطلوب الذى شرط الله التعدد به ، كما أخطأوا فى فهم الآية الكريمة التى أخبرت بأن العدل غير مستطاع .

والحق أن العدل الذى عناه الله تعالى فى قوله : (وإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة) مراد به العدل فى النفقة والكسوة والمبيت والقسم ، وهذه أمور ميسرة فى قدرة البشر أن يأتوا بها ، أما قوله تعالى : (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) ، فالمراد بالعدل فى هذه الآية العدل القلبى ، بدليل قوله : (فلا تميلوا كل الميل) . وهذا شىء خارج عن قدرة الإنسان ، لأن القلوب بيد الرحمن يقلبها كيف يشاء .

وهذا رسول الله ﷺ يقول : « اللهم إن هذا قسمى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك » .

وإن كل مايوجبه الشرع على الرجل أن لايميل مع حبه فينحرف عن جادة العدل الواجب عليه من التسوية فى النفقة والقسم والإهتمام بأولاد من يحب دون أولاد الأخرى .

٤ — حقوق الآباء على الأبناء

إن حقوق الآباء على الأبناء كثيرة لايمكن حصرها ولكن يمكن تلخيصها فى طاعتهم وبرهم وخفض الجناح لهم والبعد عن عقوقهم أو مخالفة أوامرهم مادامت لاتدعو إلى معصية الله تعالى ، والكلام فى تفصيل هذه الحقوق يطول بنا فنجتزئ منه ما يقتضيه المقام .

أولا : فضل الأبوين كما صوره القرآن :

إن فضل الأبوين على الأبناء خاصة يذكرها القرآن الكريم فى مواضع كثيرة ، ففى أكثر من موضع يدعو الله تعالى الناس إلى عبادته ويقرن ذلك بالإحسان إلى الوالدين فيقول : (وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لاتعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً) سورة البقرة ، ويقول تعالى : (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً) سورة النساء .

وقد جعل الله تعالى طاعته وعبادته والإحسان إلى الوالدين أمرين مقضيين تأكيداً لما يجب على الإنسان من طاعة لربه وإحسان لوالديه . فقال : (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) سورة الإسراء .

ثانيا : أوصى الله الأبناء بالآباء خيراً مهما فعلوا ، وقد نبه إلى هذا الحق تبارك وتعالى فى مرحلة يكون الآباء فيها أحوج ما يكونون إلى اللطف

والمعاونة ، كما أمرنا أن نلين لهم القول وأن نغدق عليهم الخير ، وأن نحفظ لهم العهد فنكرمهم فى الدنيا ما داموا أحياءاً ونذكرهم بالرحمة والدعاء الجميل والعمل الصالح بعد الممات .

ولم يكن هذا الحق على الأبناء للآباء إعناتاً وإكراهاً وإنما كان ذلك لما بذلوه من جهد فى تربية الأبناء منذ ولدوا والحدب عليهم وهم كبار . ولا ننسى دور الأم فهى التى حملته جنيناً وولدته طفلاً . وأرضعته يافعاً وسهرت على القيام بشئونه حتى شب وترعرع . قال تعالى : (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير) سورة لقمان . وقال تعالى : (ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً . . الآية) سورة الأحقاف .

لذلك نرى القرآن الكريم أمر بطاعة الوالدين فى كل ما يأمران به مما ليس فيه معصية لله تعالى بغض النظر عن عقيدتهما . قال تعالى : (وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً) ولم يقف القرآن عند حد البر بالوالدين وعدم إيذائهما، بل أمر الأبناء بمصاحبة الآباء والبر بهم ولو كانوا كفاراً ، فكيف بطاعة الأب المسلم الذى يأمر إبنه بتقوى الله ؟

حقوق الأبناء على الآباء :

أما حقوق الأبناء على آبائهم فهى كثيرة استفاضت السنة المطهرة ببيانها ولسنا هنا فى مجال سردها وسنلخصها فيما يلى :

أنه يجب على الأب إحسان تربية أولاده فيطبعهم على الخلق النافع والعلم المفيد ، كما يجب عليه أن يختار له إسماً لا يجعله أضحوكة بين أقرانه وأن يختار له

أما كريمة لا تلحق به العار . كما يجب عليه أن يعلمه السباحة والرماية ووسائل كسب العيش الكريم التى تعينه على تحمل أعباء الحياة إلى غير ذلك من الحقوق الكثيرة .

٥ ـ علاج القرآن لمشاكل الأسرة

حرص القرآن الكريم على سلامة الأسرة وتجنيبها العواصف الهوجاء، فدعا كل أفراد الأسرة إلى التراحم والتواد . وقد سمعت آنفاً ما سجله القرآن من وصايا فى شأن الوالدين، وسوف نتناول هنا علاج ما قــد ينشأ بين الزوجين من خلاف . وقبل أن نعالج هذه المشاكل التى عالجها القرآن الكريم نحب أن نلفت الأنظار إلى أن الله أمر الأزواج أن يعاشروا أزواجهم بالمعروف وألا يحكموا الغضب الطارىء فى حياتهم الزوجية، فقد يكره الإنسان أمراً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً. قال تعــالى : (وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) سورة النساء .

والمشاكل التى تحدث بين الزوجين إما أن تكون من قبل أحدهما أو من قبلهما معاً، وقد وضع القرآن لكل مشكلة حلها فأوجد لها العلاج الإيجابى الذى يحمى الأسرة من التهدم والانهيار، فإذا استفحل الأمر عالجه بعلاج يراعى فيه أن يكون الإبقاء على الأسرة هو الغاية المثلى مادام يوجد إلى ذلك مسلك يمكن سلوكه .

أما علاج القرآن للمشاكل التى تحدث من قبل الزوجة، فقد شرعه الله على مراتب :

أولاها : الوعظ باللين وصبر الزوج وتحمله أذاها إن كان الأمر يعالج بهذا الوعظ والحلم وربما أجدى اللين ما لم يجد العنف .

وثانية هذه المراتب : هجر سلبي لا عنف فيه ولكن فيه إشعار لها بجريرتها ونشوزها وتعاليها على الزوج . فإن أجدى معها هذا العلاج فلا يلجأ الزوج إلى التأديب بطريق العقوبة ، وإلا فقد شرع الله له معاقبتها بالشدة والتقريع والضرب غير المبرح حتى تمتثل فيسلبه الشرع هذه المرتبة الثالثة ولا يجعل له سبيلا عليها . فإن لم يجد كل ذلك العلاج المباشر جعل الشارع في مجلس الأسرة ومقومها الخاص علاجاً قد يكون أقوم وهو التحكيم الذي يقوم به عقلاء الأسرتين . وهدفه الإبقاء على الحياة الزوجية ما وجد إلى ذلك سبيلا . يقول الله تعالى : (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان علياً كبيراً ، وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيراً) .

أما المشاكل التي تحدث من قبل الزوج ولا قبل للمرأة بدفعها بالطرق السلمية وبحرصها على مرضاته والنزول على رغباته ، فقد شرع الله لها طريق التحكيم أولا ، ثم اللجوء إلى القضاء الذي يحميها من عنته ويرده عن جوده والقضاء بها عادل رحيم ، وعلى الزوج المتعنت قاس شديد فإن لم يرتدع هذا الزوج المتعنت أصبحت المرأة في ظل القانون سيدة الموقف ، فهي التي تملك الإبقاء على هذه الحياة الزوجية إن شاءت أو فصم عراها إن لم تستطع تحملها . والقضاء في هذا ينصفها ويقف بجانبها ويعطيها حق التخلص من هذه الحياة الزوجية الجائرة . قال تعالى : (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو

إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وأن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ، (وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما) .

الطلاق فى القرآن

شرع الله هذا النظام الدقيق للحياة الزوجية رغبة فى الإبقاء عليها ما دام فيها طريق يمكن سلوكه أو ضيق يمكن القضاء عليه أو تحمله أما إذا تحولت الحياة الزوجية إلى غير ما أراد الله لها وصارت جحيما بعد السعادة والنعيم فلا مناص من إخراج الزوجين من هذا الجحيم ، لعل أن يكون لهما متسع فى حياة أخرى يجد كل منهما فيها من النعيم ما فقده فى عشرة شريكه ، وذلك بالطلاق الذى جعله أساساً فى يد الرجل فلا يسلبه منه إلا إذا انحرف فى سلوكه ، فحينئذ يحوله عنه ليجعله حقا للزوجة التى يحترم الإسلام رأيها ويرعى أنوثتها وضعفها ، ويقدر لها كرامتها وإنسانيتها ، وإذاً فالطلاق ما شرع إلا لإنقاذ مظلوم وحماية ضعيف .

وقد طلب الله من كل من الزوجين عدم استعمال هذا الحق مراعاة لمصلحة مستقبله ، أو رعاية لطفل صغير ، وأمرنا أن نوازن بين ما سنفقده بالطلاق من مصالح ومنافع تعود على الأسرة ، أو بعض أفرادها ، وبين ما سيترتب على الطلاق من التخلص من مشاكل ومضار للأســـرة قد يمكن احتمالها .

وقد يبدو لذى النظرة البسيطة أن الإسلام بذلك ظلم المرأة وحكم الرجل فيها والحق غير ذلك ، فإن الرجل يحتاج إلى المرأة وهى كذلك إليه أحوج .

والمرأة بطبيعتها تجزع لأقل شيء كما تفوح لأدنى شيء، وهى غالبا ما تحكم عواطفها فى أمورها فلو أعطيناها حق الطلاق لهدمت بيدها عشها لأتفه الأسباب، وقد يستهويها الشيطان فيزين لها أن فلانا خير من زوجها إلى غير ذلك من الأسباب التى تؤدى إلى اضطراب الأفراد والأمة، وعدم الاستقرار بين الأسر، ومما يؤكد ما قلناه ما عليه حال النساء اليوم من فوضى وجموح فى العاطفة وعدم تقدير للمسئولية.

وأيضا فإن الإسلام حينما شرع الطلاق وضع له القيود والعقبات التى تحول دون إنفاده، وتجعله أمراً غير مرغوب فيه، فهو يلزم الزوج ألا يطلق زوجته فى حال الحيض ولا فى طهر لامسها فيه.

وهدف الإسلام من ذلك: إيجاد الفرص للوفاق بينهما، ورأب الصدع وتهدئة المشاعر.

فإذا طلق الزوج زوجته أوجب الله عليه ألا يخرجها من منزل الزوجية وأعطاه فرصة مراجعتها فى أثناء عدتها فى الطلقة الأولى والثانية بأبسط شيء بل أكثر من ذلك اعتبر الإسلام الزوجية قائمة بينهما أثناء العدة فهى ترثه وهو يرثها.

فإذا أصر الزوج على الطلاق وانقضت العدة لم يحل الشرع بينه وبين زوجته متى أراد، وكانت خالية من الأزواج إلا أن ذلك متوقف على عقد ومهر جديدين كما يتوقف على رضاها.

من كل ما سلف نجد أن القرآن حينما أباح الطلاق وضع له عقبات وحواجز تجعله لا يباح إلا على ندرة. كما جعل الله الطلاق مرتين إبقاء على الحياة الزوجية، وإنقاذاً لها من وهدة الانحلال، وقد أشار الله إلى ذلك

بقوله تعالى : (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) .
سورة البقرة .

فإذا كانت الطلقة الثالثة حرم عليه أن يراجعها إلا بعد أن تتزوج من غيره . قال تعالى : (فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره) .
سورة البقرة .

وهذا تشريع حكيم قصد الله به تأديب كل من الزوجين ، وإعطاء كل منهما فرصة يجرب فيها نفسه مع شريك آخر ، فينكشف له السبب الذى هدم حياته الأولى بهذه التجربة الجديدة ، فلعله يعود بعدها وقد انصقلت نفسه ، ولعل الزوجة تكون قد أدركت ما فقدته من محاسن زوجها فتصفو لهما الحياة بعد ما تخلصت من الشوائب التى كدرتها .

سابعاً : حروف المعجم التي افتتح بها بعض سور القرآن

إعلم أن الألفاظ التي يتهجى بها أسماء، مسمياتها الحروف المبسوطة التي ركب منها الكلام، فقولك: (دال) إسم سمى به (ده) من أحمد مثلا إذا تهجيته، وقد روعى في هذه التسمية لطيفة وهي: أن المسميات لما كانت ألفاظاً كأسمائها، وهي حروف مفردة، والأسامي عدد حروفها ثلاثة، اتجهوا إلى أن يدلوا في التسمية على المسمى، فلم يغفلوها، وجعلوا المسمى صدر كل إسم منها.

والحرف ما دل على معنى في نفسه، فالألف دلالته على أوسط حروف قال وقام، كدلالة الفرس على الحيوان المعروف، ويتصرف في الحرف بالإمالة والتفخيم والتعريف والتنكير والجمع والتصغير والوصف والإسناد والإضافة، وجميع ما هو من خصائص الأسماء، فهذه الحروف مسميات لأسمائها التي ينطق بها.

ولقد سأل الخليل يوما أصحابه: ما تقولون إذا أردتم أن تلفظوا بالكاف التي في لك والباء التي في ضرب؟ فقالوا: نقول باء كاف، فقال: إنما جئتم بالإسم ولم تلفظوا بالحروف، وأقول: كه به - وألحق هاء السكت بالحرف لأنه متحرك.

واعلم - ثانيا - أنك إذا تأملت ما أورده الله عز وجل من هذه الحروف في أوائل سور القرآن: وجدتها أربعة عشر حرفا، موزعة على تسع وعشرين سورة — أولها سورة البقرة وآخرها سورة ن والقلم — وهذه الحروف يجمعها قولك «نص حكيم قاطع له سر»، وهي نصف حروف المعجم التسعة والعشرين، مشتملة على نصف جنس الحروف.

فمن المهموسة نصفها: الصاد والكاف والهاء والسين والحاء ، ومن المجهورة نصفها: الألف واللام والميم والراء والعين والطاء والقاف والياء والنون ، ومن الشديدة نصفها: الألف والكاف والطاء والقاف ، ومن الرخوة نصفها: اللام الميم والراء والصاد والهاء والعين والسين والحاء والياء والنون ، ومن المطبقة نصفها: الصاد والطاء ، ومن المنفتحة نصفها: الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والعين والسين والحاء والقاف والياء والنون ، ومن المستعلية نصفها: القاف والصاد والطاء ، ومن المنخفضة نصفها: الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والياء والعين والسين والحاء والنون ، ومن حروف القلقلة نصفها: القاف والطاء(١) .

---

(١) الهمس: جريان النفس عند النطق بالحروف لضعفه والجهر: انحباس جرى النفس عند النطق بالحرف لقوته ، وذلك من قوة الاعتماد على مخرجه . والشدة: انحباس جرى الصوت عند النطق بالحرف لكمال قوة الاعتماد على المخرج ويكمل هذا الانحباس عند إسكان الحرف . والرخاوة: جريان الصوت مع الحرف لضعف الاعتماد على المخرج . والاستعلاء: ارتفاع اللسان عند النطق بالحرف إلى الحنك الأعلى . والاستفال: انحطاط اللسان عند خروج الحرف من الحنك إلى قاع الفم . والإطباق: تلاصق ما يحاذي اللسان من الحنك الأعلى على اللسان عند التلفظ بالحرف . والانفتاح . تجافي طائفتي اللسان والحنك عن الأخرى . حتى يخرج الريح عند النطق بالحرف والقلقلة . صوت زائد حدث في المخرج بعد ضغط المخرج وحصول الحرف فيه بذلك الضغط ، وذلك الصوت الزائد يحدث بفتح المخرج بتصويت . . اهـ

(عن نهاية القول المفيد في علم التجويد الشيخ محمد مكي نصر مراجعة الشيخ على الضباع) مصطفى الحلبي سنة ١٣٤٩ هـ .

ثم إذا استقريت الكلم وتراكيبها رأيت الحروف المتروكة من هذه الأجناس مكثورة بالمذكورة منها، ومعظم الشيء وجله ينزل منزلة كله. فسبحان من هذا كلامه.

المراد من هذه الحروف المقطعة :

وأما وجه وقوعها في أوائل السور والمعنى المراد منها : فقد اختلف فيها المفسرون :

١ ـ فمنهم من قال علمها عند الله وهي مما استأثر الله بعلمه ـ وهو قول الخلفاء الأربعة وابن مسعود رضي الله عنهم ورأى جماعة السلف رضوان الله عليهم أجمعين. ولعلهم أرادوا أنها سر بين الله ورسوله لم يقصد منها إفهام غيره ﷺ، لأنه يبعد الخطاب بما لا يفيد مطلقاً وهو عبث والعبث مستحيل على الله تعالى ـ قال ابن عباس رضي الله عنهما : عجزت العلماء عن إدراكها، وعن الصديق رضي الله عنه قال : في كل كتاب سر وسر القرآن أوائل السور، وعن علي رضي الله عنه قال : إن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي. ومنهم من فسرها ـ واختلف هؤلاء في معناها.

٢ ـ فقال الشعبي : هي فواتح السور من أسماء الله تعالى، وقال ابن عباس : هي اسم الله الأعظم، وعنه أيضاً : هو قسم أقسم الله به وهو من أسمائه تعالى، وعن عكرمة قال : آلم قسم : وهذا القول يرد عليه أنه لم ينقل في أسماء الله الحسنى، ولم يرد واحد من الأحرف المذكورة في أول السور في الحديث الشريف الذي يروي الأسماء الحسنى، كما أنه لم يرد في صفات الله تعالى، وما يروى عن الإمام علي كرم الله وجهه أنه كان يقول : يا كهيعص، يا حمعسق، فإن صح فلعله أراد يا منزلها، ولا دلالة فيه. ثم

إن اعتبارها قسما لم يرد فى نقل معتمد صحته ؛ على أن القرآن والكتاب والقلم محلوف بها ، فيكون قد جمع بين قسمين على مقسم واحد ، وهم يكرهون ذلك ، قال الخليل فى قول الله تعالى :

« والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ، وماخلق الذكر والأنثى » الواوان الأخريان ليستا بمنزلة الأولى ، ولكنهما الواوان اللتان تضمان الأسماء إلى الأسماء فى قولك : مررت بزيد وعمرو ، والأولى بمنزلة الباء والتاء ، قال سيبويه : قلت للخليل : فلم لا تكون الأخريان بمنزلة الأولى ؟ فقال : إنما أقسم بهذه الأشياء على شىء ولو كان انقضى قسمه بالأول على شىء لجاز أن يستعمل كلاما آخر فيكون كقولك : بالله لأفعلن بالله لأخرجن اليوم ، ولا يقوى أن تقول : وحقك وحق زيد لأفعلن ، والواو الأخيرة واو قسم ، لا يجوز إلا مستكرها . . . إلخ - اه الكشاف .

٣ - وقيل كل حرف منها إشارة إلى اسم من أسماء الله تعالى ، أو صفة من صفاته ، عن ابن عباس قال : ألم أنا الله أعلم ، وقيل : الألف آلاؤه واللام لطفه والميم مجده وملكه ، وقيل : الألف من الله واللام من جبريل والميم من محمد ، أى أنزل الله الكتاب بواسطة جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام — وقد رد ذلك بأن هذه الكلمات لم تستعمل فى اللغة للاختصار من كلمات أخرى معينة ، كقولهم : فى البسملة والحيعلة والحوقلة وأما ما ورد من الشواهد على صحة إطلاق الحرف الواحد على بقية الكلمة فإن فى السياق ما يدل على ما حذف بخلاف هذا ، ثم إن هذه الشواهد شاذة تحفظ ولا يقاس عليها - ومما جاء فى هذا المجال قول الشاعر :

قلنا قفى لنا فقالت قاف   لا تحسبى أنا نسينا الإيجاف

تعنى وقفت .

وقول الآخر :

بالخير خيرات وإن شراً فا ... ولا أريد الشر إلا أن تا . . .

يريد : وإن شراً فشر ، إلا أن تريد أو تشاء ـ فاكتفى بالفاء والتاء .

وفى الحديث : « من أعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله » قال سفيان : هو أن يقول فى أقتل (اق) .

ولكن كل هذا ظاهر من سياق الكلام ، وأيضاً لا يقاس عليه ، وهو تخصيص من مخصص . على أنه يمكن تأويل قول ابن عباس بأنه للتنبيه على أن هذه الأسماء مشار بها إلى المسميات التى هى منبع الأسماء ومبادىء الخطاب ، ألا ترى أنه جعل كل حرف مشاراً به إلى كلمة تباين الأخرى ؟ وذلك يدل على ما قلنا : من أنه للتنبيه على المادة الأصلية التى تتكون منها الكلمات التى يكون بها الخطاب .

عن أبى العالية قال : (آلم) هذه الأحرف الثلاثة من التسعة والعشرين حرفا ، دارت فيها الألسن كلها ، ليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسمائه ، وليس منها حرف إلا وهو من آلائه وبلائه ، وليس منها حرف إلا وهو فى مدة أقوام وآجالهم ، قال عيسى بن مريم عليه السلام وعجب : فقال أعجب أنهم ينطقون بأسمائه ويعيشون فى رزقه فكيف يكفرون به !! فالألف مفتاح اسم الله واللام مفتاح اسمه لطيف والميم مفتاح اسمه مجيد ، والألف آلاء الله واللام لطف الله والميم مجد الله . . . . إلخ اهـ . ابن كثير .

٤ ـ وقال بعضهم : هى أسماء للسور التى ابتدأت بها ، وعليه إجماع

الأكثر . منهم الخليل وسيبويه ، قالوا : سميت بها إيذاناً بأنها كلمات عربية معروفة التركيب من مسميات هـــذه الألفاظ ، فيكون إيماء إلى التحدى والإعجاز على سبيل الإيقاظ ، فلولا أنه وحى من الله لما عجزوا عن معارضته اه أبو السعود .

ويستشهد لهذا الرأى بما ورد فى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى صلاة الصبح يوم الجمعة (ألم) السجدة و (وهل أتى على الإنسان) وعن مجاهد قال : (ألم ، وحم ، والمص ، وص) فواتح افتتح الله بها القرآن ، وقال غيره : إنه اسم من أسماء السور فإن كل سورة يطلق عليها اسم القرآن ، فإنه يبعد أن يكون (المص) إسماً للقرآن كله ، لأن المتبادر إلى فهم السامع عندما يسمع من يقول : قرأت (ألمص) إنما ذلك عبارة عن سورة الأعراف لا لمجموع القرآن .

وهذا إشارة إلى قول قتادة والكلبى والسدى : إنها أسماء للقرآن ، ولعل هذا الرأى يستدل له بأنك إذا نظرت فى تلك السور تجد بعدها لفظ القرآن أو الكتاب أو ما يتعلق بهما ، وما لم يكن كذلك مثل (كهيعص) والعنكبوت : تجدهما يذكر بعدهما شأن الكتاب أيضاً ، أو القرآن أو الوحى .. اه عن ابن كثير .

ويرد على هذا الرأى اعتراضات ثلاثة :

الأول : أن القرآن نزل بلغة العرب وهم يكرهون التسمية بأكثر من اسمين ، فلا يسمون بثلاثة أسماء فصاعداً .

الثانى : أنه يؤدى إلى اتحاد الإسم والمسمى ، ومعلوم أن الإسم غير المسمى .

الثالث : أنه يستلزم الدور ، لأن مقتضى كونه اسماً أن يكون متأخراً عن المسمى ، ومقتضى كون الإسم جزءاً من السورة أن يكون متقدماً ، لأن الجزء مقدم على الكل ، فقد صار متقدما متأخراً وهو باطل .

والجواب عن الأول : سلمنا أن التسمية بثلاثة أسماء فصاعداً مستنكر عند العرب ، ولكن ذلك إذا ركبت وجعلت إسما واحداً ، كحضرموت وسيبويه وقاضيخان ، فأما إذا كانت منثورة نثر أسماء العدد فلا استنكار فيها ، لأنها من باب التسمية بما حقه أن يحكى حكاية ، كما سموا تأبط شراً وشاب قرناها ، وكما سموا ببيت شعر ، وقد سوى سيبويه بين التسمية بالجملة والبيت من الشعر وبين التسمية بطائفة من أسماء حروف المعجم ، وهذا يدل على صحة ذلك دلالة قاطعة . ثم إن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى .

والجواب عن الثانى : أنه ليس من باب اتحاد الاسم والمسمى ، لأن المسمى هو مجموع السورة ، والفاتحة هى الإسم وهو جزء السورة ، وغاية الأمر دخول الإسم فى المسمى . ثم إن التسمية تسمية مؤلف بمفرد وتسمية مجموع بجزئه ، وهذا غير ذلك حيث كان الإسم مؤلفاً والمسمى مفرداً .

والجواب عن الثالث : أن الإسم مقدم من حيث ذاته ، متأخر من حيثه كونه إسماً على مسمى ، فتقول سورة البقرة ، فإذا أمضيتها قلت : قرأت سورة البقرة ؛ وهذا غير ذاك لأن الجهة منفكة وهى مختلفة .

وإنما كتبت فى المصاحف على صور المسميات دون صور الأسماء ، لأنه أدل على كيفية التلفظ بها ، وهى أن يكون على نهج التهجى دون التركيب ، لأن فيه سلامة من التطويل لا سيما فى الفواتح الخماسية ، فقد جرت العادة متى تهجيت ومتى قيل للكاتب : اكتب كذا وكذا أن يلفظ بالأسماء وتقع

الكتابة بالحروف أنفسها. ثم إن شهرة أمرها وإقامة الألسن لها وأن اللافظ بها غير متهجاة وأن بعضها مفرد لا يخطر بالبال غير ما ورد عليه. يأمن من وقوع اللبس فيها.

وقد اتفقت المصاحف على وقوع أشياء خارجة عن علم الخط والهجاء والعروض. ولا يضر ذلك لاستقامة اللفظ وبقاء الحفظ. ولما علم من أن خط المصحف توقيفي وأن اتباعه سنة لا تخالف فى الأولى والأصح. اهـ عن أبي السعود والكشاف بتصرف.

٥ - وقال بعضهم: هذه الحروف مسرودة على نمط التعديد، وذلك كالإيقاظ وقرع العصا لمن تحدى بالقرآن وبغرابة نظمه، تنبيهاً لهم على أنه منتظم مما ينظمون منه كلامهم، ومع هذا فقد عجزوا عن آخرهم وتساقطت قدرتهم دونه، ولم يأتوا بما يدانيه فضلا عن المعارضة بما يساويه، وهم المبرزون فى الافتنان فى القصيد والرجز، ولم يبلغ من الجزالة وحسن النظم المبلغ الذى بز بلاغة كل ناطق، إلا لأنه ليس بكلام البشر، فهو كلام خالق القوى والقدرة.

ويقرب من هذا القول:

ما قاله ابن جرير: من أن البعض قال: إنه قد ابتدىء بها لتفتح لاستماعها أسماع المشركين، إذ تواصوا بالإعراض عن القرآن، حتى إذا استمعوا له تلا عليهم المؤلف منه — قال ابن كثير: وهو ضعيف لأنه لو كان كذلك لكان فى جميع السور ولا يكون فى البعض دون البعض، فغالبها ليس كذلك، بل لو كان كذلك لا نبغى الابتداء بها فى أوائل الكلام معهم سواء كان افتتاح سورة أو غير ذلك، ثم إن سورة البقرة وسورة آل عمران مدنيتان ليستا خطاباً للمشركين.

٦ - وقيل : إنها كلمات زائدة للدلالة على انقطاع كلام واستئناف كلام آخر ، ورد عليه : بأن هذه الكلمات لم تعهد مزيدة لهذه الدلالة ، وأنه يصح بغيرها كالبسملة ، لأن هذه الكلمات فواتح للسور فتكون منها ، ولا معنى لجعلها زائدة إذ يوحى ذلك بأنها ليست من السورة ، مع أنه قد نقل بما لا يقبل الجدل أنها آية من كل سورة ذكرت فيها أو جزء آية .

وعد بعضها آية دون بعض مبنى على التوقيت ، فألم حيثما وقعت ، والمص آية ، والمر والر فى سورها الخمس ليست بآية ؛ وطسم آية فى سورتيها ، وطه ويس آيتان ، وطس ليست بآية ، وحم آية فى سورها ، وكهيعص آية ، وحم عسق آيتان ، وص وق ون لا تعد واحدة منها آيه — هذا على رأى الكوفيين ، وأما من عداهم فلم يعدوا شيئاً منها آية . اهـ عن أبى السعود والكشاف .

٧ - ولعل من قال : إنها أسماء للحروف التى تتهجى والتى يركب منها الكلام : رأى وجيه : أما كونها أسماء فلدخول ما هو مختص بالأسماء عليها من التعريف والتنكير والتصغير والتثنية والجمع وغير ذلك ، وما وقع من عبارات المتقدمين من التصريح بحرفيتها محمول على المسامحة ، روى عن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف » رواه الترمذى وقال حسن صحيح — فإن هذا ليس مما نحن فيه ، فإن إطلاق الحرف على ما يقابل الاسم والفعل عرف جديد اخترعه أهل الصناعة ، إذا الحرف عند الأوائل ما يتركب منه الكلم من الحروف المبسوطة ، وربما يطلق على الكلمة تجوزاً ، والمراد منه فى الحديث

المعنى الحقيقي ليتبين بذلك أن الحسنة الموعودة ليست بعدد الكلمات القرآنية بل بعدد حروفها المكتوبة في المصاحف .

وأما كون مسماها الحروف الهجائية التي يركب منها الكلام : فإن هذا يدل على الإعجاز من جهتين :

الأولى : ما سبق من أنه إيقاظ وتحد بالقرآن ، وتنبيه على أنه منظوم مما ينظمون منه كلامهم ، ومع ذلك فقد عجزوا عن الإتيان بمثله ، وهم أساطين الفصاحة والبلاغة فدل هذا على أنه كلام خالق القوى والقدر .

الثانية : أن السورة حينما ترد مصدرة بذلك يكون أول ما يقرع الأسماع مستقلا بنوع من الغرابة ، وأنموذجاً لما في الباقي من فنون الإعجاز ، فإن النطق بالحروف أنفسها يتناوله الخاص والعام والكتابي والأمي ، بخلاف النطق بأسماء الحروف ، فإنه مختص بمن قرأ وكتب وخالط أهل القلم والكتاب وهو مستغرب من الأمي الذي لم يجالس الكتاب ، كما قال تعالى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذن لارتاب المبطلون) فكان حكم النطق بذلك مع اشتهار أنه لم يكن ممن اقتبس شيئاً من أهله ، وبخاصة إذا فكروا في الأقاصيص المذكورة في القرآن التي لم تكن قريش أو غيرها تعلم شيئاً منها ، حكم من حكم بعقله وقلبه وفكره أن ذلك حاصل له من جهة الوحي ، وأنه نبي الله حقاً ، ليس متقولا ولا كاذباً ، ناهيك بما جاء عليه من أسلوب بليغ على نمط عجيب ، يدل على أن ذلك لا يكون إلا بتعليم من الله العلي القدير .

وجاءت مفرقة على سور القرآن لأن إعادة التنبيه وتجديده في غير موضع

واحد أدعى إلى الوصول إلى المطلوب وأكثر إقراراً له فى الأسماع والقلوب من أن يجمع كله فى موضع واحد ، وكذلك كل تكرير جاء فى القرآن فالمطلوب منه تمكين المكرر فى النفوس وتقريره ، زيادة على الافتنان فى إيراد بعضها فرادى وبعضها ثنائية إلى خماسية ، على عادة افتنانهم فى الأسلوب وتصرفهم فى أوجه الكلام البليغ ، فلما كانت أبنية كلماتهم على حرف وحرفين إلى خمسة سلك بهذه الفواتح هذا المسلك ، ولله سبحانه الحكمة البالغة .

ولعل هذا الرأى أرجح الآراء وأقربها إلى التحقيق ، لا سيما أن القرآن الكريم هو معجزة الله الخالدة ، الدالة على صدق رسوله ﷺ ، أعجز الجن والإنس الذين نزل القرآن على لغتهم ، وكل ما يرشد إلى الإعجاز أحرى بالقبول .

ويقول ابن كثير فى خاتمة المطاف : « لا شك أن هذه الحروف لم ينزلها سبحانه عبثاً ولا سدى ، ومن قال من الجهلة : إن فى القرآن ما هو تعبد لا معنى له بالكلية ، فقد أخطأ خطأ كبيراً ، فتعين أن لها معنى فى نفس الأمر ، فإن صح لنا فيها عن المعصوم ﷺ شىء قلنا به ، وإلا وقفنا حيث وقفنا وقلنا : (آمنا به كل من عند ربنا) ولم يجمع العلماء فيها على شىء معين ، وإنما اختلفوا ، فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه ، وإلا فالوقف حتى يتبين ، والله أعلم .

حكمها في الوقف :

يوقف على جميعها وقف التمام إذا قدرت بحيث لا تحتاج إلى ما بعدها ، وكانت مستقلة المعنى ، وذلك إذا لم تجعل أسماء للسور ، أو جعلت وحدها أخبار ابتداء محذوف ، أما إذا قدرت بحيث تحتاج إلى ما بعدها كأن تكون مبتدأ خبره ما بعده فلا يوقف عليها ويكون الكلام جملة واحدة .

محلها من الإعراب :

(أ) إن جعلت أسماء للسور أو القرآن كان لها محل من الإعراب ، وهو الرفع على الابتداء خبره محذوف أو ما بعده من السورة ، أو الخبرية لابتداء محذوف أو النصب بفعل مضمر كاذكر أو اقرأ والفتحة مقدرة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة الحكاية ، أو بفعل القسم المقدر على طريقة الله لأفعلن على حذف حرف الجر وإعمال فعل القسم — أو الجر بتقدير الحرف حسبما يقتضيه المقام مثل تفكر في ألم .

(ب) ولو جعلتها أسماء لله تعالى فتجرى فيها الوجوه المذكورة ما عدا ان تكون مبتدأ خبره ما بعده من أى السور ، لأن الموافقة بين المبتدأ والخبر لا توجد حالئذ .

(جـ) ولو جعلتها أسماء مسمياتها الحروف الهجائية ، فإن جعلتها منثورة نثر أسماء الأعداد فلا حظ لها من الإعراب لفقد مقتضيه ، أما إذا نظرنا إلى ما قصد منها على هذا الوجه ، وقدرت لها العوامل ، تكون معربة ،

كأن تقول مثلا : المتحدى به مؤلف من هذه الحروف ، أو المؤلف من هذه الحروف متحدى به — وسواء قدرتها مرفوعة أو منصوبة أو مجرورة ، تكون الآية بعدها خبراً لمبتدأ محذوف ، ويكون الكلام من جملتين .

(د) ولو جعلتها أبعاض كلمات أو حروفاً للتنبيه وللدلالة على انقطاع كلام واستئناف آخر ، فلا حظ لها من الإعراب .

(هـ) وكذلك لا حظ لها من الإعراب إذا جعلت سراً بين الله ورسوله أو سراً استأثر الله بعلمه ، لأن الإعراب فرع المعنى .

ثامناً : إستخلاف آدم وتعليمه الأسماء

سنتناول هذا الموضوع — بإذن الله تعالى — من نواحي ثلاث :

١ — إيراده في القرآن .

٢ — قصة الإستخلاف .

٣ — الغرض من وراء إيرادها .

١ — ورود القصة في القرآن :

وردت في موضع واحد من القرآن الكريم ، وهو في سورة البقرة ، من الآية رقم (٣٠) إلى الآية (٣٤) :

قال الله تعالى « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم مالا تعلمون ۝ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ۝ قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ۝ قال يآدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ۝ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » .

فهذا هو الموضع الذي تعرض لذكر خلافة آدم ، وما عداه من الأماكن الأخرى في القرآن الكريم فيذكر فيها بدء خلقه أو إسجاد الله الملائكة له

وعصيان إبليس لأمر الله تعالى . . إلى غير ذلك مما يذكر فى قصة آدم عليه السلام .

قصة الإستخلاف :

تكلمت الآيات بطريق التصريح عن أن الله سبحانه يخبر عن امتنانه على بنى آدم بتنويهه بذكرهم فى الملأ الأعلى قبل إيجادهم ، وأنه تكلم مع ملائكته بأنه سيجعل فى الأرض خليفة ، يخلف الله فى عمارة هذه الأرض ، وذلك هو آدم ومن قام مقامه فى طاعة الله وتبليغه شريعة الله وتنفيذ مضمونها بينهم والحكم بين الناس بالعدل ، وتبيين ما أمر الله به ونهى عنه ، ليثاب المطيع ويعاقب العاصى ، فالخليفة بهذا هو الذى ينشر العدل بين ربوع الأرض . وأما الإفساد فيها وإراقة دماء الآدميين بغير حق فمن غير خلفائه .

ويمكن أن يرد خلافة آدم لمن سبقه من مخلوقات أخرى وجدت على سطح الأرض ، ثم ملكت بعد أن عصت الله وخرجت عن طاعته ، ولفظ «خليفة» يوحى بهذا لأنه يدل على أنه خلف من سبقه من تلك العوالم ، كما أن قياس الملائكة أمر الخليفة بمن سبقه ممن عاث فى الأرض الفساد يدل على هذا ، فقد قالوا : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » ، كما أن قوله تعالى : « إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد » يعطى أن هؤلاء فسقوا عن أمر ربهم فأتى الله بآدم خليفة لهم ، وهو قادر على إذهاب ذريته والإتيان بخلفاء لهم .

روى ابن جرير عن ابن عباس أن أول من سكن الأرض الجن فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء وقتل بعضهم بعضاً ، فبعث الله إليهم إبليس فقتلهم بجنوده ، حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال ، ثم خلق آدم فأسكنه

إياها ، وكان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة إسمه (عزازيل) وكان من سكان الأرض وكان من أشد الملائكة إجتهاداً وأكثرهم علماً ، فدعاه ذلك إلى الكبر .

وفى رواية أخرى عن ابن عباس : أن من الملائكة قبيلا يقال لهم الجن ، وكان إبليس منهم ، وكان يسوس ما بين السماء والأرض فعصى الله ، فمسخه شيطاناً رجيماً ، وعن الحسن : ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط ، وإنه لأصل الجن ، كما أن آدم أصل الإنسان . وهذا إسناد صحيح عن الحسن ، ولعله هو الأصح ، فإن الملائكة « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » والملائكة خلقوا من نور وإبليس خلق من النار .

والقول الأول فى معنى الخلافة هو الأقوى ، وإن كان الثانى تؤيده الأدلة إلا أنها محتملة وليست قاطعة ، وآية الإستخلاف نفسها ليس فيها تصريح بهذا ، ثم إن هناك إعتبارات أخرى تقوى أن الإستخلاف معناه خلافة الله فى إقامة العدل بين الناس والإمتثال لأوامره والإنتهاء عما نهى عنه ، فكل نبي من الأنبياء كان خليفة الله فى أرضه ، وليس آدم وحده ، قال تعالى « يا داود إنا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق » فهو خليفة الله ينفذ أحكامه فى عباد الله الذين بعث إليهم ، إذ البشر فى طبيعتهم لا يقومون بأمر الله إلا إذا كان هناك من يوضح لهم الطريق المستقيم للوصول إلى الله رب العالمين ، فهم رسل الله لهداية البشر إليه ، حتى يتحقق المعنى الذى من أجله كانت الخلافة .

وهكذا البشرية جمعاء جعلها الله بحيث يخلف بعضها بعضاً لهذا الغرض ، ولعل هذا المعنى هو الذى قرره ابن كثير حيث قال فى قوله تعالى : « إنى جاعل فى الأرض خليفه » أى قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن

وجيلا بعد جيل ، كما قال تعالى : « هو الذى جعلكم خلائف الأرض » وقال : « ويجعلكم خلفاء الأرض » : وقال : « ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون » .

والقصة كما ذكرها المفسرون :

إن الله تعالى لما أخبر الملائكة بجعله خليفة فى الأرض قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، وقد علمت الملائكة أنه لا شىء أكره عند الله تعالى من سفك الدماء والفساد فى الأرض ، وإذا كان الخلق سيعصونه فيما يأمر به وينهى عنه إذا فهم أولى منه لأنهم يسبحون الله ويقدسونه ويعبدونه حق عبادته « يسبحون الليل والنهار لا يفترون » .

فالله سبحانه وتعالى غنى عن مشاورة خلقه ، وإنما أخبرهم بذلك ليسألوا ذلك السؤال ، ويجابوا بتلك الإجابة ، ويعرفوا الحكمة من خلق آدم وذريته أو ليعلمهم المشورة وأنهم يستشيرون الحكيم والكبير منهم فى أمورهم ، وهو سبحانه غنى عن مشاورة خلقه ، فمشاورته تئول إلى معنى الإخبار .

وسؤال الملائكة : ذلك ليس على وجه الإعتراض على الله تعالى ، ولا على وجه الحسد لبنى آدم — كما قد يتوهمه بعض المفسرين — وقد وصفهم سبحانه بقوله :

« بل عباد مكرمون » لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون » ويقول : « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » .

وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة فى ذلك ، يقولون :

يا ربنا ما هى الحكمة التى من أجلها خلقت البشر ، مع أن منهم من يفسد فى الأرض ويسفك الدماء ؟ فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك والحال أننا نبعدك عن السوء ، ونقوم بفروض الطاعة والعبادة ، ونسبح بحمدك ونطهرك من الدنس والشرك ، كما ينبغى لجلال وجهك ، وعظيم سلطانك ، ولا يصدر منا شىء مما يفعله بنو آدم من المعاصى ، فهلا اقتصرت يا ربنا علينا ؟

فكان جوابه سبحانه على سؤالهم : (إنى أعلم ما لا تعلمون) إنى أعلم من المصلحة الراجحة فى خلق هذا الصنف من عبادى ، على المفاسد التى ذكرتموها ما لا تعلمون ، فأعلم كثيراً مما غاب عنكم حتى المكتوب فى اللوح المحفوظ ، فوراء ذلك كثير من علوم الغيب ، لا يمكن للمخلوقين أن يحيطوا بها ، وقد استأثر سبحانه بعلمها ، ولا يطلع عليها إلا من ارتضى من عباده إذا شاء .

وقد أقام سبحانه لهم الحجة فى صورة دليل واحد ، به يدركون معه الحكمة فى خلق آدم ، وجعله خليفة فى الأرض ، وأنه أحق بها من غيره ، فقد جعل سبحانه من ذريته الأنبياء والرسل وأوجد فيهم الصديقين والشهداء والصالحين والعباد والزهاد والأولياء والأبرار والمقربون والعلماء العاملون والخاشعون والمحبون له تبارك وتعالى المتبعون رسله صلوات الله وسلامه عليهم ، وقد ثبت فى الصحيح أن الملائكة إذا صعدت إلى الرب تعالى بأعمال عباده يسألهم – وهو أعلم – كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون يا ربنا أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون ، وذلك لأنهم يتعاقبون فينا ويجتمعون فى صلاة الصبح وفى صلاة العصر ، فيمكث هؤلاء ويصعد هؤلاء بالأعمال ، وجاء الحديث

قول الرسول ﷺ : « يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل » فقولهم : « وهم يصلون » فى حالتى الإتيان والترك ، من تفسير قوله تعالى (إنى أعلم ما لا تعملون) .

وهنا سؤال : من أين علمت الملائكة أن هؤلاء الخلق سيفسدون فى الأرض ويسفكون دماءهم ؟ وللعلماء فى هذا عدة أجوبة :

١ — أنهم علموا ذلك بعلم خاص من الله تعالى ، سواء كان هذا العلم عن طريق اطلاعهم على اللوح المحفوظ أو غيره ، ولم يبين القرآن طريق هذا العلم جرياً على عادته من الاختصار إذا لم يستدع الأمر التفصيل .

٢ — أو عما فهموه من طبيعة البشر ، حيث خلق آدم من طين ، فقد روى السدى عن ابن عباس أن ملك الموت أخذ بأمر الله من وجه الأرض وخلط ولم يأخذ من مكان واحد ، ثم خلقه الله بيده من طين لازب يلتصق بعضه ببعض ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته . فقد فهمت الملائكة من كونه خلق من أجزاء الأرض : وهى مختلفة التراكيب والعناصر والأجزاء والمعادن ، وهى إذا اجتمعت تفاعلت ، ونتج عنها معرفة عدم اجتماع الطبائع فلذا توقعوا حصول المفاسد والمعاصى ، وسفك الدماء ، والمشاحنات ممن سيخلق من هذه المادة .

٣ — أو بما فهموه من لفظ « خليفة » وأنه سيخلف الله تعالى فى إقامة العدل بين الناس ، وتنفيذ أوامره ونواهيه ، والفصل بينهم فيما يقع من مظالم وخصومات ، وردعهم عن المحارم والمآثم ، وهذا يستدعى وجود ظالم ومظلوم ، ومحكوم له ومحكوم عليه ، فيحتاجون حينئذ لنصب خليفة ليفصل بينهم بالحق .

٤ ـ أو أنهم قاسوهم على من سبق ، فقد روى ابن جرير عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن أول من سكن الأرض الجن ، فأفسدوا فيها وسفكوا فيها الدماء وقتل بعضهم بعضاً فبعث الله إليهم إبليس فقتلهم إبليس ومن معه ، حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال .

فقالت الملائكة تلك المقالة ، حينما أخبرهم الله أنه سيجعل فى الأرض خليفة ، فقاسوا هؤلاء بأولئك .

ولعل أوفق هذه الآراء وأولاها بالقبول هو الأول ويليه الثانى .

ثم تذكر الآيات مقاماً آخر : ذكر الله فيه شرف آدم على الملائكة ، بما اختصه الله به من علم أسماء كل شىء دونهم ، وكان ذلك بعد سجودهم له ويلاحظ أن القرآن يقدم ما حقه التقديم لأهميته بالنسبة لما يؤخر عنه ، وهذا إشارة إلى شرف العلم ومنزلته الرفيعة وأنه يرفع صاحبه إلى مقام دونه أى مقام آخر ، ثم إن مقام العلم مناسب تمام المناسبة لعدم علم الملائكة الحكمة من خلق الخليفة فأخبرهم سبحانه بأنه يعلم مالا يعلمون .

وقد علمه الله تعالى أسماء الأشياء كلها : أولاده إنساناً إنساناً ، والدواب على اختلافها وأسمائها ، والسماء والأرض ، والسهل والجبل والبحر وكذلك أسماء الملائكة وأشباه ذلك من الامم وغيرها . قال الحسن وقتادة : علمه إسم كل شىء وجعل يسمى كل شىء باسمه وعرضت عليه أمة أمة ـ وهذا هو الرأى الصحيح ـ كما قال ابن كثير ـ فقد علمه الله أسماء الأشياء كلها ذواتها وصفاتها وأفعالها ، كما قال ابن عباس : حتى الفســوة والفسية . يعنى أسماء الذوات والأفعال المكبر والمصغر ، وقد جاء فى البخارى فى حديث الشفاعة أنه علمه أسماء جميع المخلوقات .

ثم عرض سبحانه الخلق والمسميات على الملائكة . فقال : أخبرونى عن أسماء هؤلاء إن كنتم صادقين أنى لم أستخلف إلا المفسدين فى الأرض السفاكين للدماء ، وأنتم أولى بعمارتها وتقديس الله فيها، فإذا عجزتم عن معرفة كنه الموجود المشاهد فأنتم أشد عجزاً عن غير الموجود ، وأجمل لهم سبحانه المصالح فى استخلافهم بقوله : (إنى أعلم ما لا تعلمون). ثم فصل لهم بعضها فى قوله : (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) . . . الآيات ، فإنه لما ظهر فضل آدم على الملائكة فى سرده أسماء الأشياء قال الله للملائكة :

(ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) ، وهذه الآية استحضار لقوله : (إنى أعلم ما لا تعلمون) فإنه يعلم الظاهر والخفى ، فهذه كالشرح والبيان لتلك ، وتأمل هذا التذييل : (وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) الذى يدل على مبلغ علم الله تعالى المحيط بالكون المرئى وغير المرئى ، وما لا يعلمه إلا رب العباد ، والملائكة على قربهم من ربهم واطلاعهم على اللوح المحفوظ ، فإنهم لا يعلمون إلا الأشياء التى علمها لهم ربهم جل شأنه : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول) ، (وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى) .

ثم يذكر سبحانه مكرمة عظيمة من الله لآدم ، امتن بها على ذريته ، بجانب تلك المكرمتين : ذكره فى الملأ الأعلى واستخلافه ، وتعليمه الأسماء كلها ، تلك هى إسجاد الملائكة له جميعاً .

وقد جاء ذلك فى السنة منها حديث موسى : « رب أرنى آدم الذى

أخرجنا ونفسه من الجنة ، فلما اجتمع به قال : أنت آدم الذى خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته » . . . الحديث .

وقد كان ذلك بعد نفخ الروح فيه وقبل أن يختصه بالعلم ، وقد دخل إبليس فى خطابهم ، لأنه تشبه بهم وتوسم بأفعاله ، فلما أمروا بالسجود لآدم سجدت الملائكة إلا إبليس أبى واستكبر ، لما كان حدث نفسه من الكبر والإغترار ، فقال لا أسجد له وأنا خير منه وأكبر سناً وأقوى خلقاً خلقتنى من نار وخلقته من طين ، والنار أقوى من الطين ، فلما أبى إبليس أن يسجد أبلسه الله وآيسه من الخير كله وجعله شيطاناً رجيما عقوبة على معصيته ، وقد كان من أشد الملائكة إجتهاداً وأكثرهم علما ، ومع ذلك فقد صار أمره إلى الكفر والعياذ بالله تعالى .

وهذا يدل على أن من أظهر الله على يديه خوارق العادات فلا يدل ذلك على ولايته ، ولا على أنه يوافى الله بالإيمان — بل لقد إستدل بعضهم بهذه الآية على أن الخوارق قد تكون على يد الكافر والفاجر ، كما ثبت عن ابن صياد ، حين خبأ له رسول الله ﷺ : « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين » فقال هو الدخ ، وبما ثبت فى الأحاديث عن الدجال أن الله يظهر على يديه الخوارق الكثيرة .

يبقى أن نقول : إن الله تعالى أسجد لآدم كل الملائكة بدون إستثناء أحد ، يدل على ذلك : (فسجد الملائكة كلهم أجمعون ٭ إلا إبليس) ففيها أربعة أوجه مقوية للعموم : لفظ الملائكة والتأكيد بكل وأجمع وإستثناء الواحد من الجمع .

وقد كان هذا السجود تحية لآدم طاعة لأمر الله تعالى ، فالسجود لله

يكون عبادة ولغيره كرامة — وقد كان ذلك فيما سبق وقد سجد أبو يوسف وإخوته له ، ولكنه منسوخ عندنا. قال معاذ : قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لأساقفتهم وعلمائهم ، فأنت يا رسول الله أحق أن يسجد لك ، فقال ﷺ : « لا ، لو كنت آمراً بشراً أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها » .

الهدف والمعنى من استخلاف آدم :

إن استخلاف آدم عليه السلام فى الأرض ، يدل على معنى سام من الحكمة الإلهية ، عز فهمها على الملائكة ، فلو استخلفت الملائكة لما عرف سر هذا الكون الهائل ؛ إذ هم ليسوا بحاجة إليه لأن طبيعتهم النورانية ، تخالف طبيعة الإنسان ووصفه ، فالإنسان بحكم حاجته وخلقته المادية ، يعرف خواص الأشياء والمركبات الكيمائية وفوائدها وكيف يستفيد منها فى حياته العلمية والعملية ، وكذلك يسخرها للاستفادة منها فى طبيعته النفسية ، وفى كل ما يمكن أن يلائم حياته على اختلاف الأزمنة والأمكنة .

فالإنسان من أعجب خلق الله ، حيث أعطاه من العلوم والمعارف ما يمكن أن يسخر بها سائر المخلوقات ، ويطوعها لمتطلباته النفسية والجسدية ، بما يكفل له سعادة الدنيا ، ويعينه على أداء حق الله وحق عباده ، الأمر الذى يوصله إلى سعادة الآخرة كذلك .

وقد ضرب الله لنا المثل بتعريف آدم الأسماء كلها ، فبذلك فضل على الملائكة : فالعلم مرتبة عليا ، وغاية سامية : (ولقد كرمنا بنى آدم

وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) .

وعدل الله تعالى ورحمته وفضله وعقوبته وعفوه وقدرته وحكمته وإرادته مظاهر تتجلى كلها فى خلق الإنسان ، فلولا الإنسان الذى تتحقق فيه هذه المظاهر ، ما تحقق عدل الله ورحمته وعلمه وقدرته وطاعته وعصيانه وإحسانه وعقابه .. إلخ تلك المظاهر الإلهية التى يظهر أثرها على الإنسان ، خليفة الله فى أرضه للحكم بين الناس بالعدل .

وإذا كان الله قد كرّم آدم وذريته بإسجاد الملائكة له وتعليمه الأسماء كلها ، فما ذلك إلا ليكون على مستوى المسئولية والجزاء ، فهذه النعم العظيمة التى فضل بها الإنسان هو مسئول عنها والله يجازيه عليها ، إن أحسن فله جزاء الحسنى ، وإن أساء فعليه وبالها ، يقول جل ذكره : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا . ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيما) .

تاسعاً : تفسيرات الآيات المتعلقة بالبعث

لقد تكلم القرآن الكريم عن البعث من عدة جهات هي :

١ - إثبات البعث وكونه من المعتقدات الواجب الإيمان بها .

٢ - منكرو البعث والرد على شبههم الباطلة .

٣ - إقامة الأدلة على إمكان البعث ووقوعه .

٤ - كونه وقع فى الدنيا ، وهذا يشبه وقوعه فى الآخرة .

وإليك تفصيل هذه الجهات :

١ - عقيدة البعث :

لقد حفلت الآيات القرآنية بإثبات البعث ، وجاءت مؤيدة لكونه حقاً لا ريب فيه . قال سبحانه : (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) سورة طه .

وقال تعالى : (قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) . سورة الأعراف .

وقال : (أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ، بلى قادرين على أن نسوى بنانه) سورة القيامة .

وقال : (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) سورة الروم .

أى فى نظركم الإعادة أهون من الإبداء ، لأن من يفعل فعلا أولا ،

يصعب عليه ، ثم إذا فعل بعد ذلك مثله يكون أسهل عليه ، أو أن المراد : وهو هين عليه ، كقول القائل : الله أكبر – أى كبير – اهـ عن الفخر الرازى .

وقال جل شأنه : (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم) إلى قوله : (ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير ٭ وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور) سورة الحج .

وقد اشتملت هذه الآيات على خمس نتائج صحيحة ، استنتجت من عشر مقدمات صادقة :

(ا) فقوله : (ذلك بأن الله هو الحق) نتيجة مترتبة على ما ثبت بالتواتر أن الله تعالى أخبر بزلزلة الساعة ، وهو خبر مقطوع بصحته ، لأنه جاءنا عن طريق الصادق ﷺ عن ربه عز وجل ، فهو حق ولا يخبر بالحق عما سيكون إلا الحق ، فالله هو الحق .

(ب) وقوله « وأنه يحيى الموتى » نتيجة عن خبر أهوال الساعة ، وحصول فائدة هذا الخبر متوقفة على إحياء الموتى ليشاهدوا تلك الأحوال ، وقد ثبت أنه قادر على كل شىء ، ومن الأشياء إحياء الموتى ، فهو يحيى الموتى .

(جـ) « وأنه على كل شىء قدير » حيث أخبر أن من يتبع الشياطين ومن يجادل فيه بغير علم يذقه عذاب السعير ، ولا يقدر على ذلك إلا من هو على كل شىء قدير ، فهو على كل شىء قدير .

(د) « وأن الساعة آتية لا ريب فيها » لأنه أخبر بالصدق أنه خلق الإنسان من تراب ثم من نطفة ثم من علقة . . . إلخ ، وضرب لذلك مثلا بالأرض الهامدة ينزل عليها الماء فتنبت ، ومن خلق الإنسان كذلك ثم أماته

ثم يعيده بالبعث ، وأوجد الأرض بعد العدم وأحياها بالخصب ، وصدق خبره فى ذلك بدلالة الواقع ، صدق خبره فى الإتيان بالساعة .

(٥) ولا يأتى بالساعة إلا من يقدر على إحياء من فى القبور للجزاء ، فهى آتية لا ريب فيها ، والله سبحانه يبعث من فى القبور . اهـ عن الإتقان بتصرف .

ولقد صور القرآن الكريم البعث وأحواله ، وما سيكون فيه وما سيعقبه فى سور كثيرة منها : سورة الحج وسورة القيامة وسورة التكوير والانفطار ونحوها ، وبجانب ذلك اهتم بذكر أمارات البعث وعلاماته .

وعقيدة البعث اتفقت عليها الشرائع جميعاً ، وقد نزلت بها الكتب السماوية السابقة وأخبر بها الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فهو حق ثابت يجب الإيمان به معلوم من الدين بالضرورة ، ومنكره كافر قطعاً . هذا من ناحية النقل .

وهو ثابت أيضاً عقلا ، فإن العقل لا يحيل وقوعه ، فإن هذه الحياة الدنيا فيها من يفعل الإحسان ولا يلقى جزاءه من المثوبة ، وفيها من يرتكب الإساءة ولا يلقى جزاءه من العقوبة ، ولا بد لتحقيق العدالة من أن يلقى كل منهما جزاء ما قدمت يداه ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وإلا لانقلب العدل ظلماً ، وذلك لا يصبح فى نظر العقل « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون » سورة المؤمنون « أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون » سورة القلم (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) الجاثية .

٢ - منكرو البعث والرد عليهم :

أنكر الكفار البعث، وقالوا : إن الجسم مركب من مواد مجتمعة، فإذا تفرقت تحلل الجسم ولا يمكن إعادته مرة أخرى، وكيف يعيد الله هذه الأجزاء بعد ما تفتت وصارت ترابا وعظاما نخرة ؟ وكيف يجعلها خلقاً آخر ؟ وهم قد قاسوا الغائب على الشاهد، وظنوا أنه إذا لم يكن فى إمكانهم إعادة الحياة الميت فليس فى مقدور الله تعالى أن يعيده مرة أخرى كذلك .

وكذبوا . فقد ذكر القرآن هذه الشبهة ورد عليها بالأدلة القاطعة لينتفع بها من شاء الله له النفع والنجاة قال سبحانه : (وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاماً أئنا لمبعوثون * أو آباؤنا الأولون * قل إن الأولين والآخرين لمجموعون * إلى ميقات يوم معلوم) ثم يقول (ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون) سورة الواقعة .

وقال سبحانه : (فقال الكافرون هذا شيء عجيب * أئذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد) إلى أن يقول (أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد) سوره ق .

فهذه الآيات الكريمة وغيرها تثبت بالدليل القاطع أن الإنسان له حياة أخرى غير هذه الحياة الدنيا، ينشأ الإنسان فيها خلقاً جديداً، وإن قدرة الله سبحانه وتعالى أوسع بكثير مما قالوه، لا يعجزه شيء فى السموات ولا فى الأرض، بل إن عقولهم نفسها مخلوقة على نمط واحد بديع، حيث كانت فيها قوة الفكر والتدبر، فهى تدل على قدرة الصانع سبحانه وتعالى :

وفى تفسير سورة يس عند قوله تعالى : (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم * قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو

بكل خلق عليم ، الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ، أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم) يقول الفخر الرازى : بدأ أولا بإبطال استبعاد المنكرين للحشر بقوله (ونسى خلقه) من أنا خلقناه من تراب ومن نطفة متشابهة الأجزاء ، ثم جعلنا لهم الأعضاء المختلفة الصور والقوام ، وأودعناهم النطق والعقل الذين بهما استحقوا الإكرام ، فلم يستبعدوا إعادة النطق والعقل إلى محل كانا فيه ، مع خلق الناطق العاقل من نطفة لم تكن محل حياة أصلا ؟ ثم استبعادهم المعاد للتفرق والتفتت ، دفع سبحانه هذا الاستبعاد من جهة ما فى المعيد من القدرة والعلم ، فقال (وضرب لنا مثلا) أى جعل قدرتنا كقدرتهم (ونسى خلقه) العجيب وبدأه الغريب .

وأما من استبعد الإعادة لأنه بعد العدم لم يبق الإنسان شيئاً ، فقد رد عليهم بقوله (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) فكما خلقه ولم يكن شيئاً مذكوراً ، كذلك يعيده وإن لم يبق شيئاً مذكوراً .

وأما من تفرقت أجزاؤه فى مشارق الأرض ومغاربها ، وصار بعضه فى بطون السباع وبعضه فى بطون السمك ، أو أن إنساناً أكل آخر وصارت أجزاء المأكول فى أجزاء الآكل ، فإن أعيد فأجزاء المأكول إما أن تعاد إلى بدن الآكل فلا يبقى للمأكول أجزاء تخلق منها أعضاؤه ، وإما أن تعاد إلى بدن المأكول منه فلا يبقى للآكل أجزاء ـ فقد رد سبحانه على هذه الشبهة بقوله (وهو بكل خلق عليم) ذلك لأن فى الآكل أجزاء أصلية وأجزاء فضلية ، وفى المأكول كذلك ، فإذا أكل إنسان إنساناً صار الأصلى من أجزاء المأكول فضلياً من أجزاء الآكل ، والأجزاء الأصلية للآكل هى ما كان له قبل الأكل ، والله يعلم الأصلى من الفضلى ، فيجمع الأجزاء الأصلية للآكل

وينفخ فيها روحه ، ويجمع الأجزاء الأصلية ، المأكول وينفخ فيها روحه ، وكذلك الجميع يجمع أجزاءهم المتفرقة فى البقاع المتعددة ، بحكمته الشاملة وقدرته الكاملة .

ثم عاد سبحانه إلى تقرير دفع استبعادهم وإبطال شبههم ، فقال : (الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً) فإن الإنسان له جسم يحس به وروح تسرى فيه ، وهى كحرارة تجرى فيه ، فإن استبعدتم وجود ذلك فيه فلا تستبعدوه فإن النار فى الشجر الأخضر الذى يقطر منه الماء أعجب وأغرب ، فالله قادر على بعثكم بعد الموت . وإن استبعدتم خلق جسمه ، فخلق السموات والأرض أكبر من خلق أنفسكم فلا تستبعدوه ، فإن الله تعالى خالق السموات والأرض ثم أشار إلى القدرة الكاملة والعلم الشامل المحيط بكل شىء بقوله (وهو الخلاق العليم) .

وأكد بيانه بقوله : (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) حيث قالوا : لا يقدر أحد على مثل هذا قياساً للغائب على الشاهد ، فأظهر فساد تمثيلهم وتشبيههم ، فقال : فى الشاهد يكون الخلق بالآلات البدنية والانتقالات المكانية ولا يقع إلا فى الأزمنة الممتدة ، والله سبحانه يخلق بكلمة « كن » فيكون ، فكيف تضربون له المثل الأدنى ، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض ؟! اهـ بتصرف .

٣ – الأدلة على إمكان البعث ووقوعه :

اتجه القرآن فى سوق الأدلة على إمكان البعث ووقوعه بالجسم والروح معاً ، إلى عدة أقيسة يثبت بها هذه القضية . من هذه الأدلة .

(ا) قياس الإعادة على البدء :

فالذى خلق الخلق أول مرة قادر على أن يعيد خلقه أيضاً مرة أخرى ، بل الإعادة أهون عليه من الخلق الأول : أفعيينا بالخلق الأول) ، (كما بدأكم تعودون) ، (كما بدأنا أول خلق نعيده) .

قال الفارابى : كنت أود وأشتهى أن يكون أرسطوطاليس حياً ، حتى يسمع قول الحق جل وعلا وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال : (من يحيي العظام وهى رميم ‍• قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) . . الآيات من سورة يس .

وهذا قياس جلى واضح ، لا يحتاج إلى دليل يثبته ، فهناك خلق قد أنشىء من تراب لا حياة فيه ، فالذى يوجد الحياة من تراب وجدت فيه الحياة من قبل ، ليس بأعجب من الإيجاد من تراب بادىء بدء لا عهد له بالحياة .

وقال تعالى : (يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى) إلى أن قال : (وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور) الآيات من سورة الحج .

وقال تعالى : (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) . . سورة الروم .

(ب) قياس الإعادة على إيجاد النار من الشجر الأخضر ، فإن إيجاد النار فى الشجر الأخضر الذى يقطر ماء ، يناسب الحياة التى تجرى فى الإنسان والحرارة التى تسرى فى دمه وروحه والقادر على هذا هو (الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون).

(ج) قياس قدرته على الإعادة على قدرته على خلق السموات والأرض بطريق الأولى ، فإن خلق الإنسان بالنسبة لخلق السموات والأرض يسير فى قدرة الله تعالى ، أليس خلق السموات والأرض مع عظمهما ودقيق صنعهما ، وتسييرهما بحكمة حكيمة وإمساكهما أن تزولا ، وجعل السماء كالقبة المضروبة على وجه الأرض مرفوعة بغير عمـــد ، والأرض ذلولا مستوية لا تميد بالناس ، أليس ذلك وغيره من أعظم الأدلة وأجلها على قدرته سبحانه على خلق الإنسان مرة أخرى ، وإعادته لحياة أتم وأكمل ؟ إن خلقه ليسير بالنسبة لخلقهما ، فلم تستبعدون القدرة على الإعادة ؟

قال تعالى : (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون) سورة غافر . وقال : (أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم) سورة يس .

(د) قياس الإعادة بعد الموت باليقظة بعد النوم ، فالبعث ما هو إلا حياة جاءت عقب موت جاء بعد الحياة الدنيا ، وكذلك الإنسان ينام ثم يستيقظ بعد النوم ، فالحياة شبيهة باليقظة والموت شبيه بالنوم .

قال تعالى : (وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون) سورة الأنعام . وقال : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) سورة الزمر .

فالله تعالى : يتوفى الأنفس عند الموت وعند النوم ، إلا أنه يمسك الأنفس التى قضى عليها الموت ويرسل النائمة إلى وقت ضربه لموتها ، فالأنفس التى

يتوفاها هي التي نامت وما ماتت عند منامها ، وأما التي قضى عليها الموت فيمسكها ولا يردها إلى البدن ، والأنفس التي يتوفاها عند النوم يردها إلى البدن حين اليقظة ، وتبقى إلى أجل مسمى وهو وقت الموت .

إن النفس في وقت الموت ينقطع تعلقها عن ظاهر البدن وباطنه ، وأما في وقت النوم فإنه ينقطع تعلقها به في ظاهره من بعض الوجوه ، ولا تنقطع عن باطن البدن ، فثبت أن الموت والنوم من جنس واحد ، إلا أن النوم انقطاع ناقص من بعض الوجوه ، وهما يشتركان في كون كل منهما توفياً للنفس ، ثم يمتاز أحدهما عن الآخر بخواص معينة ، في صفات معينة ، ومثل هذا التدبير العجيب لا يمكن صدوره إلا عن القادر العليم الحكيم ، ولذلك ختمت الآية بقوله سبحانه : (إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

(هـ) قياس الإعادة على الخلاف القائم في البعث بطريق قياس الخلف :

وذلك في قوله تعالى : وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون • ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين) سورة النحل .

ذلك لأن اختلاف الفريقين لا يوجب انقلاب الحق في ذاته ، وإن اختلفت الطرق الموصلة إليه ، وإذا كانت الحقيقة موجودة ولا سبيل إلى الوصول إليها ما دمنا على حالتنا المفطورة على الجدل والمراء والاختلاف ، وكان لا يمكن ارتفاعه إلا بارتفاع تلك الفطرة ونقلها إلى صورة أخرى ، صح ضرورة أن لنا حياة أخرى غير هذه الحياة الدنيا ، فيها يرتفع الخلاف ، وهذه هي التي وعد الله بالمصير إليها ، وبذلك انقلب الخلاف وتحول إلى دليل على أن البعث حق وكائن — اهـ عن الإتقان بتصرف .

(و) قياس قدرته على الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها :

أنظر إلى الأرض الميتة عندما ترمى فيها البـــذر ، تراها وقد اهتزت وخذت زخرفها وازينت ، وأخرجت الزرع البهيج ، والفواكه اللذيذة وأنواع الرياحين والزهور الجميلة ، فمن جعل فيها مادة الحياة بعد الممات ، قادر على أن يخلق من تراب الأرض بشراً سوياً حياً ، وإن اختلفت الحياة وصورتها فى كلا الجانبين ، فقد قاس سبحانه خلق الإنسان وإعادته مرة أخرى ، على خلق النبات وإحيائه من الموات ، وفى ذلك عبرة لمن أراد أن يتعظ ويتدبر .

قال تعالى : (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ٭ ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير ٭ وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور) سورة الحج .

وقال تعالى : (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ٭ تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ٭ ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ٭ والنخل باسقات لها طلع نضيد ٭ رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج) سورة ق .

وقال سبحانه : (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياهـــا لمحيى الموتى إنه على كل شىء قدير) سورة فصلت .

أى من الدلائل الدالة على تفرد الله بالعبادة وتوحده فى صفاته العليا ، حال الأرض حين خلوها عن المطر والنبات ، فإذا أنزلنا عليها الماء تحركت

بالنبات وانتفخت ليظهر منها النبات أول ظهور ، ثم تصدعت عنه ، إن القادر على إحياء الأرض بعد موتها هو القادر على إحياء هذه الأجساد بعد موتها ، فإن عود التأليف والتركيب إلى تلك الأجزاء المتفرقة ممكن لذاته ، وعود الحياة والعقل والقدرة إلى تلك الأجزاء بعد اجتماعها أيضا أمر ممكن لذاته ، والله تعالى قادر على الممكنات ، إذاً فهو قادر على إعادة التركيب والتأليف ، والحياة والقدرة والعقل والفهم ، إلى تلك الأجزاء .

وهذا يدل على سبيل الوضوح التام ، على أن حشر الأجساد ممكن لا امتناع فيه ولا استحالة ، والله على كل شيء قدير ، لا يمتنع عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء .

(ز) قياس الإعادة على ما وقع فى الدنيا من إحياء بعض الموتى ، وهذا ما سنفصله فى الجهة الرابعة — بإذن الله تعالى :

٤ — وقوع البعث فى الدنيا يشبه وقوعه فى الآخرة :

وقع البعث فى الدنيا وهو ثابت فعلا ولا ينكره إلا معاند مكابر . . وقد ذكر القرآن وقوعه فى الدنيا فى سبعة مواضع .

(الموضع الأول) : فى قوله تعالى (وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ٠ ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون) سورة البقرة .

وفى تفسير الآيتين خلاف ، ولعل أولاها ما قاله ابن إسحاق وغيره : أن موسى لما رجع إلى القوم وقد عبدوا العجل ، حرقه وذراه فى اليم ، واختار منهم سبعين رجلا من خيارهم ، وقال انطلقوا إلى الله وتوبوا مما صنعتم ، فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه ، فسألوا موسى أن

يسمعهم ربنا كلامه ، فدنا موسى من الجبل ووقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله ، وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد أن ينظر إليه ، ودنا القوم حتى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجوداً ، فسمعوه وهو يكلم ربه يأمره وينهاه ، حتى فرغ وانكشف عنه الغمام ، أقبل على القوم فطلبوا منه أن يريهم الله جهرة فأخذتهم الصاعقة فماتوا كلهم ، وقام موسى رافعاً يديه إلى السماء ويدعو ربه : رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى ، رب اخترت من بنى إسرائيل سبعين رجلا ليكونوا شهودى أرجع إليهم وليس معى منهم رجل واحد ؟ فما الذى يصدقونى به ويأمنونى عليه بعد هذا ؟ ولم يزل يناشد ربه حتى رد إليهم أرواحهم . وقال الربيع ابن أنس : كان موتهم عقوبة لهم ، فبعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم . وقال غيره : إن الله أحياهم فقاموا وعاشوا رجل رجل ، ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون .

(الموضع الثانى) فى قوله تعالى : (وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون ، فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون) سورة البقرة .

كان رجل من بنى إسرائيل عقيما لا يولد له ، وكان له مال كثير ، وكان ابن أخيه وارثه ، فقتله ثم احتمله ليلا فوضعه على باب رجل منهم ، ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض ، فقال ذوو الرأى منهم والنهى : علام يقتل بعضكم بعضا وهذا رسول الله فيكم ؟ فأتوا موسى عليه السلام فذكروا ذلك له ، فكان ما كان مما حكاه القرآن .

عن ابن عباس : أن أصحاب بقرة بنى إسرائيل طلبوها أربعين سنة ،

حتى وجدوها عند رجل فى بقر اه وكانت بقرة تعجبه — فجعلوا يعطونه بها فيأبى ، حتى أعطوه ملء مسكها دنانير فذبحوها ، فضربوه بعضو منها فقام تشخب أوداجه دماً ، فقالوا له : من قتلك ؟ قال : قتلنى فلان — وفى رواية : أنهم لما ضربوا القتيل رجعت إليه روحه فسمى لهم قاتله ، ثم عاد ميتاً كما كان .

وقوله تعالى : (كذلك يحيى الله الموتى) تنبيه منه تعالى على قدرته على إحيائه الموتى بما شاهدوه من أمر القتل ، فكان ذلك الصنيع حجة على المعاد وفاصلا ما كان من العناد .

وجاء لفظ الآية بالجمع ليدل على أن الإعادة كالابتداء فى قدرته ، ولو كان المراد ذلك القتيل لما جمع فى قوله : (الموتى) .

(الموضع الثالث) فى قوله : (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون) سورة البقرة .

ذكر غير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كانوا أهل بلدة فى زمان بنى إسرائيل ، استوخموا أرضهم وأصابهم بها وباء شديد ، فخرجوا فراراً من الموت هاربين إلى البرية ، فنزلوا وادياً أفيح ، فملأوا ما بين عدوتيه ، فأرسل الله إليهم ملكين : أحدهما من أسفل الوادى والآخر من أعلاه ، فصاحا بهم صيحة واحدة فماتوا عن آخرهم موتة رجل واحد ، فحيزوا إلى حظائر وبنى عليهم جدران وفنوا وتمزقوا وتفرقوا ، فلما كان بعد دهر مر بهم نبى من أنبياء بنى إسرائيل يقال له (حزقيل) فسأل الله أن يحييهم على يديه فأجابه إلى ذلك ، فناداهم ، فاجتمعت العظام بعضها إلى

بعض وكسيت لحماً ورجعت الأرواح إلى الأجساد بأمر الله ، فقاموا ينظرون إلى بعضهم ، قد أحياهم الله بعد رقدتهم الطويلة ، وهم يقولون : سبحانك لا إله إلا أنت ، ثم ماتوا بعد ذلك بحسب آجالهم .

فكان فى إحيائهم عبرة ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسمانى يوم القيامة ولهذا قال : (إن الله لذو فضل على الناس) أى فيما يريهم من الآيات الباهرة والحجج القاطعة والدلالات الدامغة . اهـ ابن كثير .

وقال الرازى : هـذه الآية دالة على أن الله تعالى أحياهم بعد أن ماتوا فوجب القطع به ، وذلك لأنه فى نفسه جائز والصادق أخبر عن وقوعه ، فوجب القطع بوقوعه ، فتركيب الأجزاء على الشكل المخصوص ممكن ، واحتمالها الحياة ممكن ، وإلا لما وجد أولا ، وإذا ثبت الإمكان وقد أخبر الصادق عن وقوع ما ثبت فى العقل إمكان وقوعه ، وجب القطع به . اهـ ملخصاً .

(الموضع الرابع) فى قوله تعالى : (أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير) سورة البقرة .

اختلف العلماء فى هذا المار من هو ؟ والمشهور أنه عزيز ، والمشهور أن القرية هى بيت المقدس ، مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها . فبعثه الله بعد موته ، وكان أول شىء أحياه الله فيه عينيه ؛ فكان ينظر إلى

صنع الله فيه وكيف يحيي بدنه ، فلما استوى قال الله له بواسطة الملك . كم لبثت . . إلى آخر القصة .

وعلى القول بأنه عزير ، فإنه طلب ذلك ليزداد معرفة ويقيناً وبصيرة ، كما طلبه إبراهيم عليه السلام ، فإنه لما تبين له أمر الإماتة والإحياء على سبيل المشاهدة والعيان ، قال (أعلم أن الله على كل شيء قدير) أي قد علمت مشاهدة ما كنت أعلمه قبل ذلك الاستدلال .

(الموضع الخامس) في قوله تعالى : (وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم) سورة البقرة .

روى ابن عباس أن الأربعة هي الغرنوق والطاووس والديك والحمامة ، وأجمع أهل التفسير على أن المراد من الآية : (فصرهن) قطعهن ، وأن إبراهيم ذبحها وقطع أعضاءها ولحومها وريشها ودماءها وخلط بعضها على بعض ، وجزأها أجزاء وجعل على كل جبل منهن جزء ، ثم دعاهن كما أمره الله سبحانه فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش والدم إلى الدم واللحم إلى اللحم ، حتى قام كل طائر على حدة وأتينه يمشين سعياً ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها ، ولهذا قال (واعلم أن الله عزيز حكيم) أي عزيز لا يغلبه شيء ولا يمتنع من شيء ، وما شاء كان بلا ممانع لأنه القاهر لكل شيء ، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه .

(الموضع السادس) في قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام (وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله) سورة آل عمران .

وقوله : (وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى وتبرىء الأكمه والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى) سورة المائدة .

قال الكلبي : كان عيسى عليه السلام يحيي الأموات بيا حي ياقيوم، وأحيى عاذر وكان صديقاً له ودعا سام بن نوح من قبره فخرج حياً ، ومر على ابن ميت لعجوز فدعا الله فنزل عن سريره حيا — عن الفخر الرازى .

ويروى ابن كثير فى سورة المائدة أنه كان يدعو الموتى فيقومون من قبورهم بإذن الله وقدرته وإرادته ومشيئته ، وينقل عن ابن حاتم أنه كان إذا أراد أن يحيى الموتى صلى ركعتين فإذا فرغ منهما مدح الله وأثنى عليه ، ثم دعا بسبعة أسماء : ياقديم ياخفى ياداثم يافرد ياوتر يا أحد ياصمد ، وكان إذا أصابته شدة دعا بسبعة أخر : ياحى يا قيوم ياألله يارحمن ياذا الجلال والإكرام يانور السموات والأرض وما بينهما ورب العرش العظيم يارب . يقول ابن كثير : وهذا أثر عظيم جداً .

(الموضع السابع) فى قوله تعالى : (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا . إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشداً . فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عدداً . ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً) إلى أن يقول سبحانه (وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً) سورة الكهف .

يخبر الله تعالى عن أولئك الفتية الذين فروا بدينهم من قومهم ، لئلا يفتنوهم عنه ، فهربوا ولجأوا إلى كهف فى جبل ليختفوا عن قومهم ، وقالوا

حين دخلوه سائلين المولى عزوجل : (ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا) وظلوا على الحالة التى حكاها القرآن طيلة ثلاثمائة سنة وتسع سنين صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبصارهم . لم يفقدوا من أحوالهم شيئاً .

وذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك فى البعث وفى أمر القيامة ، وكان منهم طائفة تقول : تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد ، وطائفة أخرى تقول يبعث الروح والجسد فبعث الله أهل الكهف حجة وآية على صحة البعث بالأجساد لأن انتباههم بعد ذلك النوم الطويل يشبه من يموت ثم يبعث ، وكما حفظ الله تعالى هذه الأجساد طوال تلك المدة الهائلة فهو يقدر على إعادة تلك الأجساد بعد موتها .

وبعد :

فإن هذه الجولة السريعة فى آيات البعث فى القرآن ، قد أكدت أن الحياة الثانية ماهى إلا من هذا النوع ، وأن البعث إنما هو بالروح والجسد جميعا ، وفى ذلك أبلغ رد على من ينكره ويلق بالشبه الواهية أمام تلك الحقائق الإلهية .

واقرأ معى قول الله تعالى : (وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ● وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ● قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لاريب فيه ولكن أكثر الناس لايعلمون) . الآيات من سورة الجاثية .

وبجانب هذا فإن الأعضاء سوف تشهد على صاحبها يوم القيامة ، حيث ينطقها الله بقدرته القادرة — قال تعالى : (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ● يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين) سورة النور .

وقال سبحانه : (ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون * حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون) سورة فصلت .

ثم كيف يصح فى العقل ألا يعاقب جسد فى النار قاسمك لذائذ الحياة ؟ وكيف لا يثاب جسد فى الجنة شاركك البعد عن الشهوات المحرمة ؟ .

ومن لطائف هذا البحث أن بعض الفلاسفة المنكرين للبعث ، جاء لبعض العلماء وسأله : إنك تؤمن بالبعث بعد الموت وتقول : إن الجسد يعاد مرة أخرى بعد أن يبلى ، فما هو الذى يترتب على هذه العقيدة ؟ إنى أرى أن البعث أو عدمه لا يترتب عليه فائدة . فقال له العالم : إن كان هناك بعث فقد نجوت أنا وهلكت أنت ، وإن لم يكن هناك بعث فقد نجونا جميعا .

قال المنجم والطبيب كلاهما   لا تبعث الأموات قلت إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر   أو صح قولى فالخسار عليكما

عاشراً : عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

سنتناول بإذن الله الكلام على عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من ناحيتين :

(أ) بعض الأمور عن العصمة وأقسامها والأمور المعصوم منها .

(ب) الآيات التى يوهم ظاهرها عدم العصمة .

تعريف العصمة :

هى ملكة تقوم بنفس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، تحملهم على الخير وتنهاهم عن الشر ، مع وجود الاختيار تحقيقا للابتلاء .

المعصوم منه :

وهم معصومون من أربعة :

١ ـ من الكفر والشرك بالله تعالى .

٢ ـ من الكذب فى دعوى الرسالة ، والتبليغ عن الله ما لم يقل به .

٣ ـ من الكبائر .

٤ ـ من الصغائر .

١ ـ العصمة من الكفر والشرك بالله :

اتفقت الشرائع والأديان جميعها ، فأجمعت الأمة : على أن الأنبياء معصومون من الكفر والشرك ، سواء قبل النبوة أو بعدها ، كما أنهم اتفقوا على أنه لم يقع منهم شىء من هذا مطلقا .

ولكنهم اختلفوا فى جواز وقوعه عقلا ، فبعض الخوارج جوزوه ، لأن الكفر من الذنوب وصدور الذنب منهم جائز - وجوزه الروافض أيضا ، لأنهم يجوزون إظهار كلمة الكفر على سبيل التقية .

قال الله تعالى : (لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) فهذه الآية الكريمة تهدد وتوعد من يدرك حق الإدراك ويجرى عليه التكليف فضلا عن الأنبياء .

ودليلنا العقلى : أنه لو جاز وقوع الكفر منهم لنفر الناس عنهم ، ولما تمكنوا من تبليغ ما أمروا بتبليغه ، وابطلت بعثتهم القائمة على أساس التوحيد وعدم الإشراك بالله ، وهذا لو كان لكانوا داخلين تحت ذم الله لقوم يقولون مالا يفعلون : (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون • كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) ، (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) .

٢ - العصمة من الكذب فى دعوى الرسالة :

يستحيل عقلا على من يدعى النبوة المؤيد بتصديق الله تعالى ، أن يكون كاذباً فى دعواه الرسالة ، التى كلف بتبليغها إلى المرسل إليهم ، فما من نبى إلا أيده الله تعالى بالمعجزات الخارقة للعادة القائمة مقام قول الله تعالى : (صدق عبدى فيما يبلغ عنى) ، وإلا فلو ظهرت المعجزة على يد الكاذب لكان تصديقا من الله له ، وهذا قبيح وتناقض محال فى حق الله تعالى ، لأنه منزه عن النقائض ، (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا • أو قال أوحى إلىّ ولم يوح إليه شىء) .

وينقل الباقلانى عن بعض الكرامية من المرجئة أنهم يجوزون على الرسل الكذب فى التبليغ، والأمر كما علمنا.

قال الله تعالى: (ولو تقول علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين. ثم لقطعنا منه الوتين. فما منكم من أحد عنه حاجزين).

وقد أثبت القرآن الكريم لهم الرسالة والنبوة فى قوله: (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات).. (محمد رسول الله).. (يا أيها النبى).. (يا أيها الرسول).. وإذا كان القرآن أثبت لهم النبوة والرسالة فكيف يكونون كاذبين مع ما كلفوا به من التبليغ؟.

ثم إن الله أمرنا بطاعتهم والاقتداء بهم بقوله: (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة..).. (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول..).. (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم).

وحذر من مخالفتهم بقوله: (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) فلو أمر الرسول بأمر غير أمر الله أو نهى عن غير منهى عنه لكان مقتضاه الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف بتأييد الله تعالى وأمره، وكيف يستقيم هذا والله لا يأمر بالفحشاء؟ إذن فهذا النوع غير جائز على الأنبياء بالعقل والنقل.

٣ ـ العصمة من الكبائر:

هذه الكبائر: إما أن تؤدى إلى الخسة والدناءة والفسق وتستقبحها النفوس، وإما أن تكون غير ذلك.. وكل منهما: إما أن يقع قبل النبوة أو بعدها.

(أ) أما الكبائر الخالية من الخسة والدناءة ولا تستقبحها النفوس ، فيجوز عقلاً أن يقع منهم ذلك عمداً قبل البعثة ، وذلك لأنهم لم يبعثوا ولم يكلفوا بتبليغ شريعة . حتى ينهوا عنه ، وأيضاً فهى ليست خسيسة فى النفس ولم يأت دليل يمنع ذلك .

أما وقوعه فعلاً فى الخارج ، فهذا ما لم يكن ولم يحصل منهم قطعاً ، وأما استدلال الخوارج على وقوعه بالفعل بحادثة موسى عليه السلام مع المصرى ، وقوله : (هذا من عمل الشيطان) وقوله : (فعلتها إذن وأنا من الضالين) :

فإن القتل فى ظاهره ظلم وليس له حق فيه حيث قتل نفساً بغير نفس ، ولكن الجمهور على أن ما حصل من موسى لم يكن يقصد منه القتل ، بل كان يقصد الدفاع عن رجل من شيعته ، فوكز المصرى فمات بدون قصد له ، وأيضاً فإن هذا المصرى كان كافراً وكان مستحقاً للقتل .

وقوله : (هذا من عمل الشيطان) فإن الله ندبه إلى تأخير القتل إلى حال القدرة ، فإقدامه على ترك المندوب من عمل الشيطان ، وقوله (إنى ظلمت نفسى) أى بحرمانها من ثواب المندوب لو أخرت القتل ، وقوله : (من الضالين) أى من المتحيرين لا يدرى ما يجب عليه أن يفعله .

(ب) أما وقوع الكبائر الخسيسة والتى تستقبحها النفوس قبل النبوة عمداً فمستحيل عليهم وهم معصومون منه ، لأنه لو حصل منهم ثم أمروا الناس ونهوهم لوقف ماضيهم حجر عثرة دون طاعة الناس لهم ونفروا منهم ، فينقلب أمر الرسالة على عكس ما أراد الله تعالى ، ولكن هذا لم يكن ولم

ينقل إلينا، فقد كان المرسلون فى غاية الكمال الإنسانى والأدب الربانى، فثبت أنهم معصومون من الكبائر عقلا وفعلا، والله تعالى يقول: (الله أعلم حيث يجعل رسالته).. (يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين).. (وما كان لنبى أن يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة).

(ج) أما وقوع الكبائر منهم قبل النبوة سهواً، فإن كان فيه خسة ودناءة فهم منه معصومون قطعاً، وأما الخالية من الخسة والدناءة فقد تقع منهم، فالكبائر التى تقع سهواً منهم ولا تؤدى إلى خسة ولا إلى دناءة جائزة عليهم، إن كانت قبل النبوة، بدليل قول الله تعالى: (وعصى آدم ربه فغوى. ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى).. (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما) ومؤدى هذا أنه فعل الكبيرة حيث أكل عما نهى الله عنه. على سبيل النسيان، وكان ذلك قبل أن يجتبيه ربه ويحمله النبوة.

(د) وقوع الكبائر منهم بعد النبوة:

جوز جمهور العلماء وقوع الكبيرة من الأنبياء بعد النبوة، وشرطوا أن يكون ذلك سهواً أو نسياناً أو خطأ فى التأويل.

واستدلوا على ذلك بآيات من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: (عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين)..وقوله (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم).. إلى غير ذلك من الآيات.

وهذا الرأى وإن كان رأى الجمهور، ولكنا يجب علينا أن نرفع الأنبياء إلى ما هو أحسن وأفضل من هذا، فنقول وبالله التوفيق:

هذه وأمثالها لا تعتبر من الكبائر ، فللنبى أن يجتهد ويفعل ما يراه من المصالح فى نظره ، ثم إن كانت صوابا وافقه الوحى عليها ، وإن كانت غير هذا فإن الوحى ينزل بالتصحيح ، ومع هذا فإن إجتهادات النبى ﷺ كانت من باب (حسنات الأبرار سيئات المقربين) فهى ليست ذنباً فى ذاتها ، ولكن نظراً لمكانة النبى اعتبرت من باب خلاف الأولى ، وأيضاً فلو سلمنا فإن المجتهد إن أصاب فله أجران وإن أخطأ فلو أجر واحد ، وأيضا فإن قول الجمهور ليس محرراً ، لأن هذه الأمور جوزوا وقوعها منهم سهواً أو نسيانا أو خطأ فى التأويل ، وهذا لا يجعل الأمور المذكورة من باب الكبائر ، بل لا تعتبر من باب الذنوب أصلا .

والخلاصة : أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا تقع منهم الكبائر بعد النبوة ولو سهواً أو خطأ ، ولكنهم يجتهدون فلو فرض وأنهم أخطأوا صحح الوحى لهم الخطأ ، وهذا لا كبيرة فيه ، لأنهم إجتهدوا فى صورة ليس فيها نص . والله أعلم .

٤ — العصمة من الصغائر :

اتفقوا على أن الصغائر يصح وقوعها قبل النبوة وتلقى الرسالة ، واختلفوا فى وقوعها بعد الرسالة ، فبعضهم جوزها وبعضهم منعها ، والحق أنها لا تقع إلا عن سهو أو خطأ ، وأما عن عمد فلا .

الأدلة على عصمة الأنبياء :

أورد الفخر الرازى فى كتابه عن (عصمة الأنبياء) أدلة كثيرة على وجوب عصمتهم نأخذ منها ما يلى :

(الدليل الأول) أنه لو صدر الذنب عنهم لكان حالهم فى استحقاق الذم عاجلا والعقاب آجلا أشد من حال عصاة الأمة ، وهذا باطل فصدور الذنب عنهم باطل كذلك .

بيان الملازمة : إن أعظم نعم الله على العباد هى نعمة الرسالة والنبوة ، وكل من كانت نعم الله عليه أكثر كان صدور الذنب عنه أفحش ، والعقل يدل عليه ، وكذلك النقل فى قوله تعالى : (يانساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين) . . . الآيتين .

(الدليل الثانى) أنهم كانوا يأمرون بالمعروف وفعل الطاعة وينهون عن المنكر وترك المعصية ، ولو تركوا المعروف وفعلوا المعصية لدخلوا تحت قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) ، قوله : (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) وهذا فى غاية القبح ، وقد أخبر الله تعالى عن شعيب عليه السلام أنه برأ نفسه من ذلك فقال : (وما أريد ان أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت) .

(الدليل الثالث) قوله تعالى : (وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار) فلفظ (المصطفين) ولفظ (الأخيار) يتناولان جملة المأمورات والمنهيات ، بدليل صحة الاستثناء فى قولك : فلان من المصطفين الأخيار إلا فى كذا ، والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل ، فدلت الآية على أنهم كانوا من المصطفين الأخيار فى كل الأمور .

ونظير هذه الآية قوله تعالى : (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس) . وقوله : (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران

على العالمين) . وقوله : (واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار . إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار) .

(الدليل الرابع) لو صدر الفسق عن سيدنا محمد ﷺ فإما أن نكون مأمورين بالاقتداء به وهذا لا يجوز ، أو لا نكون مأمورين بالإقتداء به وهذا باطل أيضاً ، لقوله تعالى : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) . ولقوله تعالى (فاتبعوه) ولما كان صدور الفسق يفضى إلى هذين القسمين الباطلين ، كان صدور الفسق عنه ﷺ محالا .

(الدليل الخامس) قال الله تعالى فى حق سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام (إنى جاعلك للناس إماماً) والإمام هو الذى يقتدى به ، فلو صدر الذنب عنه لكان اقتداء الخلق به فى ذلك الذنب واجباً ، وهذا باطل .

(الدليل السادس) أن الله تعالى قسم المكلفين إلى قسمين : حزب الشيطان وحزب الله ، قال سبحانه : (أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون) وقال : (أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون) . وحزب الشيطان هو الذى يفعل ما يأمره به الشيطان ، ولو صدرت الذنوب عن الأنبياء لصدق عليهم أنهم من حزب الشيطان ، ولصدق عليهم «هم الخاسرون» ، وصدق على آحاد الأمة الزاهدين «هم المفلحون» ، وحينئذ يكون الواحد من الأمة أفضل بكثير من الأنبياء ، وهو باطل .

(الدليل السابع) قوله تعالى : (لا ينال عهدى الظالمين) فكل من أقدم على ذنب فهو ظالم لنفسه لقوله تعالى : (فمنهم ظالم لنفسه) .

وذلك العهد الذى حكم الله به أنه لا يصل إلى الظالمين إما أن يكون عهد النبوة أو الإمامة ، فإن كان الأول فهو المقصود ، وإن كان الثانى فالمقصود أظهر ، لأن عهد الإمامة أقل درجة من عهد النبوة ، فإذا لم يصل الظالم المذنب إلى عهد الإمامة ، فن باب أولى لا يصل إلى عهد النبوة .

بعض شبهات توهم عدم عصمة الأنبياء وردها

ورد فى القرآن الكريم آيات يوهم ظاهرها عدم عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ونحن نورد بعضها على سبيل الاختصار ، تكون نماذج تحتذى فيما لم ننص عليه :

آدم عليه السلام :

١ – عصى ربه حيث أكل من الشجرة المنهى عن الأكل منهـا ، وهى مذكورة فى سورة البقرة والأعراف وطـه وغيرها . فالآيات تدل فى مجموعها على ما يأتى :

أولا : أنه عصى بدليل (وعصى آدم ربه فغوى) والعاصى صاحب كبيرة ، لقوله تعالى : (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها) .

ثانياً : أنه ارتكب المنهى عنه ، لقوله تعالى : (ألم أنهكما عن تلكما الشجرة) وارتكاب المنهى عنه عين الذنب .

ثالثاً : أنه تعالى سماه ظالماً فى قوله : (فتكونا من الظالمين) وسمى نفسه ظالماً فى قوله : (ربنا ظلمنا أنفسنا) والظالم ملعون لقوله : (ألا لعنة الله على الظالمين) إذن فهو صاحب كبيرة .

والجواب : أن ذلك كان قبل النبوة ، فلا يكون مورداً للاعتراض على عصمته وهو نبى دليل هذا الجواب « ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » وأما على رأى من يمنع صدور المعصية عن الأنبياء قبل النبوة فالجواب :

أولا : أن المعصية مخالفة الأمر ، والأمر يكون بالواجب والمندوب ، وإطلاق اسم المعصية على آدم لكونه تاركا للمندوب ، أو لأنه لا يليق بمكانته .

ثانياً : أن النهي للتنزيه لا للتحريم ، ومعناه أن النهي يفيد أن جانب الترك راجح على جانب الفعل ، ولو سلمنا أنه للتحريم فإنه كان ناسيا « فنسى ولم نجد له عزماً » والتكليف مرتفع عن الناس ، ولو سلمنا أنه ما كان ناسياً فإنه أخطأ في الإجتهاد ، لأن كلمة « هذه » في « ولا تقربا هذه الشجرة » قد يراد بها الشخص أو النوع ، فتأول آدم النهي على الشخص فعدل عنه إلى شخص آخر ، والمجتهد إذا أخطأ في الفروع لم يكن صاحب كبيرة .

ثالثاً : ان من يجوز الصغيرة على الأنبياء ، يؤول فعل آدم بأنه من باب أن كل ذنب يأتي به المكلف كبيراً كان أو صغيراً فهو ظالم لنفسه ، وأما من لم يجوزها فيجيب بأن ترك الأولى ظلم ، لأنه لما تمكن من فعل الأولى ليثاب عليه الثواب العظيم وتركه من غير موجب فقد ظلم نفسه لأن حقيقة الظلم وضع الشيء في غير موضعه ، وهاهنا كذلك .

٢ ـ قوله تعالى : (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفاً فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين ، فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون) .

فالنفس الواحدة هي نفس آدم ، وزوجها هي حواء ، وهذا يقتضي صدور الشرك عنهما ، وقد جاء أن إبليس تعرض لحواء وقال لها : إن أحببت أن يعيش ولدك فسميه عبد الحارث ، وكان إبليس يسمى الحارث فسمته بهذه التسمية .

والجواب : أن الخطاب لقريش وهو آل قصى ، أى خلقكم يا قريش من نفس قصى ، وجعل من جنسها زوجها عربية قرشية ليسكن إليها ، فلما آتاهما ما طلبا من الولد الصالح سميا أولادهما الأربعة بعبد مناف وعبد العزى وعبد قصى وعبد الدار ، والضمير فى « يشركون » لهما ولأعقابهما . او أن الكلام يرجع لآدم وحواء فى الضمائر ، ما عدا ضمير « جعلا » ، « يشركون » فإنهما يرجعان إلى نسلهما ، والتقدير : فلما آتى الله آدم وحواء الولد الصالح الذى طلباه ، جعل كفار أولادهما ذلك مضافاً إلى غير الله ، وثنى ذكرهما لأن المراد جنسهما من الذكر والأنثى ، ويؤيد هذا ضمير الجمع فى « يشركون » ، وإنما أسند الفعل لآدم وحواء لأنهما الأصل فى إيجاد الأولاد ذكوراً وإناثاً .

والجواب الأول أرجح لأن الثانى فيه تفكيك للنظم الكريم .

وأما ما ذكروه من تعرض إبليس لحواء فهى رواية ضعيفة لا تقبل فى الأمور العلمية ، وكيف يعقل هذا والعداوة الشديدة التى كانت من أول الأمر بين آدم وحواء وبين إبليس ، مانعة لهما من الاغترار به — والعجب أن ابن جرير اغتر بهذه الرواية وادعى الإجماع عليها وأخذ يؤولها ، وما كان أغناه عن هذا .

يقول ابن حزم فى الفصل : إن هذه الرواية خرافة موضوعة مكذوبة من تأليف من لا دين له ولا حياء ولم يصح سندها قط . اه بتصرف .

نوح عليه السلام :

قال الله تعالى فى شانه : (ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين . قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين) .

أولا : طلب نوح من ربه أن ينجى ابنه من الغرق لأنه سبق له أن وعده بنجاة أهله ، وأعلمه الله أنه عمل غير صالح فليس من أهله الذين وعدوا بالنجاة ، وقال له : (فلا تسألن ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين) .

ثانياً : قال خبراً عن نوح : (قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين) .

ثالثاً : قوله : (إنه عمل غير صالح) والضمير عائد إلى السؤال :

والجواب : قال ابن حزم : إن نوحاً عليه السلام تأول وعد الله تعالى أن يخلصه وأهله ، فظن أن ابنه من أهله على ظاهر القرابة ، وهذا لو فعله أحد كان مأجوراً ، ولم يسأل نوح تخليص من أيقن أنه ليس من أهله ، فتفرع على ذلك نهى عن أن يكون من الجاهلين ، فندم عليه السلام ونزع ، وليس ها هنا عمد للمعصية ألبته . اه

ونقول : إن لنا جوابين :

الأول : أن نوحاً عليه السلام لم يكن يعلم أن ابنه من الكافرين ،

حيث إنه طلب منه أن يركب معه ، ولا ينحاز إلى الكافرين ، لأنه ليس كافراً ، وكان رد ابنه : « سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء » وهو رد لا يشم منه رائحة الكفر ، فجهله أن ابنه كان كافراً وهو لا يعلم حقيقة أمره .

الثانى : أن قوله (إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم) لا يدل على أنه فعل ذلك ، ولو سلمنا أنه دعاء وطلب منه الركوب ، فقد كان ذلك بعاطفة الأبوة رجاء إنقاذ ابنه الذى يعلم كفره ، فرد الله عليه بأنه من أهلك فى النسب ، ولكنى أردت أهلك من المؤمنين ، وهو ليس منهم فلا يصح أن ينسب إلى الفئة المؤمنة ، فلا يصح لنبى أن يقدم عاطفة الأبوة على الدين .

ولا يقال : لم سأل من غير إذن ؟ لأنه لما لم يجد نصاً يمنع منه تمسك بالجواز فى الإباحة الأصلية ، أو أنه كان مسلماً فى الظاهر وكان نوح عليه السلام مأذوناً له فى دعاء المسلمين فدعاه بحكم الظاهر .

إبراهيم عليه السلام :

١ — قال تعالى حاكياً عن إبراهيم عليه السلام (هــذا ربى) : مشيراً إلى الكواكب مرة ثم إلى القمر مرة أخرى ثم إلى الشمس مرة ثالثة .

وحجة المعترضين : أنه إن كان قال هذا الكلام فى معرض النظر والاستدلال كان قطعه بذلك مع تجويز أن يكون الأمر بخلافه ، إخباراً عما يجوز أن يكون المخبر كاذباً فيه ، وذلك غير جائز . وإن قال ذلك الكلام بعد الاستدلال كان كفراً فضلا عن الكذب .

والجواب : أن كلامه كان على سبيل الفرض لا على سبيل الإخبار ،

وذلك حال اشتغاله بالنظر والإستدلال ، وفائدة ذلك أن يظهر ذلك الفرض ما يقصد إليه من الفساد ، وقد عقبه بما يدل على فساده وهو قوله : (لا أحب الآفلين) .

وإن قلنا : إنه تكلم به بعد فراغه من النظر والاستدلال وصيرورته موقناً بالله حق اليقين ، فإنه تكلم بذلك على ما هو الأمر عندهم ، ومنه قوله تعالى : (وانظر إلى إلهك) أى فى زعمك .

ويمكن أن يراد من الكلام الاستفهام وأسقطه استغناء عنه . أو أن إبراهيم عليه السلام أراد أن يبطل قول الكفار بتعظيم الكواكب ، فأوهمهم أنه يعظمها ، ثم عقب بذكر الإستدلال على بطلانه .

يقول ابن حزم : والصحيح من ذلك : أنه إنما قال هذه المقالة موبخاً قومه ، ولذلك لم يعاتبه الله على شيء من ذلك ، بل قال : (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه) فوافق مراد الله تعالى .

٢ - قول الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام لما سألوه : (أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ قال : بل فعله كبيرهم هذا) . وعنى بالكبير الصنم ، وهو كذب لأنه هو الذى كسرها .

والجواب : أنه كناية عن غير مذكور ، أى فعله من فعله ، و (كبيرهم هذا) ابتداء كلام ، ويروى عن الكسائى أنه كان يقف عند (بل فعله) ويبتدىء بـ (كبيرهم هذا) .

أو أنه ذكره إلزاماً لهم . لأنه لما كان هو الإله الأكبر فكسر خدمه المقربين لديه لا يصدر إلا عنه .

يقول ابن حزم : هو تقريع وتوبيخ لهم ، كقوله تعالى (ذق إنك أنت العزيز الكريم) وهو فى الحقيقة مهان ذليل معذب فى النار . اهـ باختصار .

٣ — قال الله تعالى مخبراً عن إبراهيم عليه السلام : (فنظر نظرة فى النجوم فقال إنى سقيم) .

وفيه أنه تمسك بعلم النجوم ، وكذب فى قوله : (إنى سقيم) .

والجواب : أننا لا نسلم أن النظر فى النجوم حرام . لأن من اعتقد أن الله تعالى هو الذى أجرى العادة ، وأنه تعالى خلق فى الحوادث قوى مخصوصة تجعلها أسبابا لحدوث الحوادث فى هذا العالم ، فعلى هذا لا يكون النظر فى النجوم حراماً . ويحتمل أنه نظر فيها تشبهاً بأهل زمانه فى الظاهر ، وحكم بأنه سقيم إيهاما على قومه أنه استدل على ذلك بالنجوم ، وإن كان الأمر فى نفسه ليس كذلك .

وأما دعوى أنه كذب : فإنه كان سقيما فى تلك الساعة على معنى أنه كان مشرفاً على السقم من باب : (إنك ميت وإنهم ميتون) . أو أراد ما فى قلبه من الهم والحزن بسبب ما عندهم من الكفر والعناد .

وما رواه البخارى ومسلم من قوله ﷺ : (ما كذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات قوله : إنى سقيم . وقوله : بل فعله كبيرهم هذا . وقوله لسارة : إنها أختى) فإنه من أخبار الآحاد فلا يعارض الدليل القطعى ، من نحو قوله تعالى : (وإن من شيعته لإبراهيم • إذ جاء ربه بقلب سليم • إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون • أئفكا آلهة دون الله تريدون • فما ظنكم برب العالمين) وقوله : (وإبراهيم الذى وفى) وقوله : (أو لم تؤمن قال بلى)

وقوله سبحانه (قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه). ولئن سلمنا بالحديث فإنه محمول على ما يكون ظاهره الكذب، وأخوته لسارة فى الدين، أو من كونهما ينتسبان لآدم أو لسائر الأجداد.

٤ — قول الله تعالى: (وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحي الموتى...) الآية. وهو يدل على أنه لم يكن موقناً بقدرة الله تعالى على إحياء الموتى.

والجواب: أن ذلك وقع عند وصول الوحي إليه، فإنه كان يريد أن يعرف علامة يعرف بها أنه نبيء حقا، فالمعنى: أو لم تؤمن بأنك رسول الله؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي على كونى رسولا من قبلك لا من قبل الشيطان.

أو أن ذلك وقع بعد النبوة ويكون المراد: ليطمئن قلبي على قدرتك على الإحياء بالمشاهدة، فإن البرهان إذا تأيد بالمشاهدة صار أقوى وأعم، وإن إبراهيم عليه السلام ما أراد إثبات القدرة بالدلالة العقلية، بل أراد إثباتها بالمشاهدة، فإنه لا يجب على المستدل أن يقف عند دليل معين، كيف وفى الرجوع إلى المشاهدة مزيد فائدة لأن الحسى أقوى فى الاستدلال. ثم إنه عليه السلام كان سؤاله منصبا على الكيفية. ويمكن أن يجاب بأنه عليه السلام لما أمر بالتبليغ، فكر وقال: لعل الخصوم يطالبونى بمعجزات غريبة، فسأل الله تعالى عن هذا الأمر الغريب، فقوله: (ليطمئن قلبي) غير متعلق فى الآية على شيء معين، فلك أن تصرفه إلى أى شيء شئت سوى الإيمان.

٥ — قال الخصوم: إن إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه وهو كافر، والاستغفار للكافر غير جائز، فقد فعل ما لا يجوز. واستغفاره لأبيه جاء

فى قول الله تعالى : (واغفر لأبى إنه كان من الضالين) . وأما أنه لا يجوز فلقوله : (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى) .

والجواب : لعل إبراهيم عليه السلام لم يجد فى شرعه ما يدل على القطع بعذاب الله للكافر ، فمن هنا استغفر لأبيه ، أو أنه استغفر له لأنه كان يرجو منه الإيمان ، فلما أيس منه ترك الاستغفار ، دليل هذا قول الله تعالى : (فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) .

ثم إنه ليس فى لفظ (النبى) من قوله : (ما كان للنبى) عموم ، فإن الاسم المفرد المحلى بأل لا يقتضى العموم ، فالنبى محمول على نبينا محمد ﷺ ، ولا يتناول إبراهيم عليه السلام .

يوسف عليه السلام :

١ — قال الله تعالى (وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب . وقالت هيت لك ، قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون . ولقد همت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء) . . .

والجواب : أن يوسف عليه السلام شهد ببراءته من الذنب كل من له تعلق بتلك الواقعة — فقد شهد الزوج (إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين) وشهد الحاكم (وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قدّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قدّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين) .

وشهد النسوة (حاش لله ما علمنا عليه من سوء) . وشهد الملك (إنك اليوم لدينا مكين أمين) . وشهد الخصم (الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه) وبرأ نفسه (هي راودتني عن نفسي) . ثم إن رب العالمين شهد ببراءته (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء) فأية شبهة تبقى مع هذه الشهادات ببراءته عليه السلام ؟ والهم في اللغة يطلق عن معان : العزم . الخطور بالبال . المقاربة . الشهوة وميل الطبع .

فلو حمل الهم عن العزم : فإنه معلق بذاته وذاتها على حسب ظاهر الآية ، وذلك غير جائز لأن الذوات لا ترد ، فلا بد من تعليق الهـــم بشيء غير الذات ، أما همها فقد كان متعلقاً بالفاحشـة للنص ، وهو قوله تعـالى : (وراودته) (تراود فتاها) . (أنا راودته) وقد أجمع المفسرون على أنها همت بالفاحشة والمعصية ، وأما همه فليس في ظاهر الآية ما يفسره ، وقد قامت الأدلة على أنه لا يتعلق بالفاحشة فيمكننا أن نقول : أنه متعلق بدفعه إياها عن نفسه .

أو أن الـكلام على التقديم والتأخير ، أي ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها ، كقولك : قد كنت هلـكت لولا أن تداركته . وقوله تعالى : (إن كانت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها) .

وقد اختلف النحويون في تقديم الجواب ، ورأينا أنه إذا دار الأمر بين أن يكون جواباً محذوفاً وبين أن يكون متقدماً عليها ، فلا شك أن التقديم أولى من الحذف . اهـ : الفخر الرازي .

وحيث لم يكن منه عليه السلام هم مع برهان ربه ، فما فائدة قوله :

(وهم بها) ؟ نقول : إنه لم يكن به رغبة عن النساء لعجز فيه ، ولكن ترك ذلك مخافة الله وطلباً لثوابه .

والبرهان هو علمه بما على الزاني من عقاب وحجة الله في تحريم الزنى . أو ما آتاه الله من آداب أنبيائه من العفة وصيانة النفس عن الأرجاس . وقيل غير ذلك .

٢ – كيف يقول عليه السلام : (السجن أحب إلى) والسجن معصية ، ومحبته للمعصية معصية ؟

والجواب : هو من باب توطين النفس على المشاق ، أو أنه اختار أخف الشيئين المكروهين جداً .

٣ – كيف يعول على غير الله في الخلاص من السجن في قوله : (أذكرني عند ربك) ؟ حتى قالوا : إنه طال سجنه لهذا ؟

والجواب : أن التمسك بالأسباب لا ينافي حقيقة التوكل .

٤ – ما معنى (جعل السقاية في رحل أخيه) ؟

والجواب : المراد أنه تسبب في احتباس أخيه عنده ، ولعل ذلك بأمر من الله تعالى ، وروى أنه أعلم أخاه بذلك ليجعله طريقا إلى التمسك به ، وعلى هذا لا يكون ذلك سببا في إدخال الغم على قلب أخيه .

٥ – ما معنى أن يطلب الولاية لنفسه في قوله : (اجعلني على خزائن الأرض) ؟

والجواب : أنه التمس بتمكينه في الأرض أن يحكم فيها بالعدل ، لأنه كان مستحقا لذلك بسبب نبوته ، والمستحق أن يتوصل إلى حقه بأي طريق مشروع

موسى عليه السلام :

١ - قول الله تعالى : (فوكزه موسى فقضى عليه) :

وقتل موسى للقبطى إما أن يكون لأنه مستحق له أولا ، فإن كان الأول فلم قال : (هذا من عمل الشيطان) ، (إنى ظلمت نفسى) .. الآية ، (فعلتها إذن وأنا من الضالين) ؟ وإن كان الثانى كان عاصياً فى قتله .

والجواب : أنه لكفره كان مستحقاً للقتل ، أو أنه قتله خطأ ولم يكن يقصد ذلك ، بل قصد تخليص الذى من شيعته .

وأما الآيات فمن جوز الصغيرة حملها عليه ، فإن التوبة والاستغفار تجب ماقبله من الصغائر كما تجب الكبائر . وبقى فى الآيات بعض التفاصيل :

قوله : (هذا من عمل الشيطان) : معناه أن الله ندبه إلى تأخير قتل أولئك الكفار إلى حال القدرة ، فلما قتل فقد ترك المندوب - أى أن إقدامى على ترك المندوب من عمل الشيطان . أو أن اسم الإشارة يرجع إلى المقتول ، أى أنه من جند الشيطان وحزبه ، يقال : فلان من عمل الشيطان أى من أصحابه . وقوله : (إنى ظلمت نفسى فاغفر لى) أى أنه ظلم نفسه حيث حرمها من الثواب على فعل المندوب ، أو اعتراف بالتقصير عن حقوق الله وإن لم يكن هناك ذنب قط .

وقوله : (فاغفر لى) أى اقبل منى هذه الطاعة والانقطاع إليك . وأما قوله (فعلتها إذن وأنا من الضالين) فلم يقل إنى صرت بذلك ضالا ، فإنه كان ينفى عن نفسه الكفر الذى ادعاه عليه فرعون ، فاعترف بأنه كان ضالا متحيراً لا يدرى ما يجب عليه أن يفعله وما يريده فى ذلك .

(٢) قول الله تعالى « وألق الألواح » .

الأمر لا يخلو أن يكون صدر الذنب عن هارون عليه السلام ما استحق به ذلك التأديب ، أو لم يصدر عنه بل صدر عن موسى عليه السلام .

وأيضاً فإن هارون نهى موسى « لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى » فإن كان موسى مصيباً فيما فعله مع هارون كان هارون عاصياً فى منعه عن فعل الصواب ، وإن كان هارون مصيبا فى ذلك المنع كان موسى عاصيا فى ذلك الفعل .

والجواب: أن موسى أقبل وهو غضبان على قومه ، فأخذ برأس أخيه وجره إليه كما يفعل الإنسان بنفسه فى مثل هذا الموقف ، وأجرى موسى أخاه مجرى نفسه ، لأنه كان شريكه ، فصنع به مثلما يصنع الرجل بنفسه فى حال الغضب . وقوله « لا تأخذ بلحيتى » لا يمتنع أن يكون هارون خاف توهم بنى إسرائيل لسوء ظنهم أنه منكر عليه معاتب له ، ولذا قال « إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل » ، وقال : « ابن أم إن القوم استضعفونى »

ثم إن بنى إسرائيل كانوا فى نهاية سوء الظن بموسى ، حتى أنهم اتهموه بقتل هارون ، فلما واعد موسى ربه أربعين ليلة وكتب له فى الألواح من كل شىء ، رجع فرأى فى قومه ما رأى ، فأخذ برأس أخيه ليعرف منه القصة ، فخاف هارون أن يسبق إلى قلوبهم ما لا أصل له فى الحقيقة من رغبته فى كيفية الواقعة . فلما أدناه منه قال له إشفاقا عليه « لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى لئلا يظن القوم بك سوءاً .

وما جرى من موسى هو الذى يكون فى الواقع ، فإن المفكر الغضبان

قد يعض على شفتيه أو يقلب أصابعه أو يقبض على لحيته ، أو يحوقل أو يسبح أو نحو ذلك ، دليلا على عدم رضاه بما حصل أو إشفاقاً من وقوع المكروه .

داود عليه السلام :

(١) قال تعالى : (وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب) إلى آخر الآيات الكريمة من سورة « ص » .

وتلك الآيات لا تدل على صدور الكبيرة من داود عليه السلام ، لوجوه :

الوجه الأول : ما تقوله بعض كتب التفسير أنه عشق امرأة أوريا ، فاحتال حتى قتل زوجها ثم تزوجها ، لا يليق بأفسق الملوك فضلا عن أفضلهم فضلا عن الأنبياء عليهم السلام .

الوجه الثانى : أن ارتكاب جريمة القتل أعظم عند الله مما يحكونه . فكيف يترك الله الذنب الأعظم ويقتصر على الأخف ؟ .

الوجه الثالث : أن الله تعالى ذكر فى السورة الكريمة محاجة منكرى النبوة والخصوم ، فلا يليق مع هذا القدح فى نبوة بعضهم بهذا الفسق القبيح .

الوجه الرابع : أنه سبحانه وصف نبيه داود عليه السلام فى ابتداء القصة بأوصاف حميدة ، وهذا ينافى ما ذكروه من صفة الذم . إقرأ فى هذه السورة تلك الصفات الحميدة .

« ذا الأيد » أى القوة فى الدين . « إنه أواب » أى رجاع إلى الله « وآتيناه الحكمة » والحكمة اسم جامع لكل ما ينبغى علماً وعملا — « ياداود إنا جعلناك خليفة » وهذه من أجل الصفات ، وهى تتناقض مع

وصفه بوصف الخسة ومزاحمته أفضل أصحابه وأحبائه فى زوجه والدفع به إلى القتل .

ثم إن هذا يتناقض أيضاً مع قوله فى حق الرسل (إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار . وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار) فى أثناء ذكر الأنبياء فى نفس السورة ، وهذا الوصف ينافى وصفهم بالإقدام على الكبيرة والفاحشة .

وهل ما وصفوه به يتفق مع وصف الله له (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) ؟! .

كل ذلك وغيره يثبت براءة داود عليه السلام مما ينسبه إليه البعض من المفسرين أو غيرهم .

يقول ابن كثير : هذه القصة أكثرها مأخوذ عن الإسرائيليات ، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه ، وما رواه ابن أبى حاتم لا يصح سنده لأن فيه يزيد الرقاشى ، وهو وإن كان الصالحين لكنه ضعيف الحديث جداً عند الأئمة . اهـ بتصرف .

ويجدر بنا الآن أن نتكلم على بعض مباحث فى الآيات الكريمة :

إن الله تعالى أخبر عن جماعة أنهم تسوروا المحراب على داود فى يوم عبادته وخلوته ، فلما رآهم خافهم لما وقر فى الذهن والعرف أنه لا يتسور أحد سور غيره إلا لسوء يريده به من قتل أو سرقة أو غيرهما ، فلما رآهم فزع منهم فطمأنوه ، وأخبروه أنهم جاءوا يحتكمون إليه ، فلم ينتقم منهم مع أنه ذو أيد وقوة وسلطان وقدرة ، بل استغفر ربه لهم وطلب منه

سبحانه أن يعفو عنهم ، فإن الله تعالى لم يقل إنه أذنب ولا أنه استغفر لنفسه والمستغفر قد يستغفر لنفسه أو لغيره ، ومنه قوله تعالى : (ويستغفرون للذين آمنوا) وقوله : (يا أبانا استغفر لنا) .

وأما قوله تعالى : (فغفرنا له ذلك) أى غفرنا لأجله ولأجل حرمته ذنب أولئك المتسورين . وهذا التأويل يمتاز بأنه لا يحتاج إلى المجاز من كون الخصمين ملكين وحمل النعجة على المرأة ، مع ما يناسب هذا من المنصب العظيم ، الذى ذكره الله عقب القصة ، وهو خلافة الله فى الأرض .

وجه آخر فى تأويل الآيات : أنه استغفر ربه لأنه ظن أن القوم يريدون قتله ، فلما لم يكن الأمر كذلك ندم على ذلك الظن وكان الاستغفار لأجل هذا الظن : وهذا الجواب ذكره أبو حيان ، وهو أحسن ما قيل فى تأويل ذنب داود عليه السلام .

أو لأنه لما لم ينتقم منهم مع القدرة على الانتقام دخله شىء من العجب على حلمه عليهم وعدم إنزال العقوبة بهم ، فكان الاستغفار لأجل العجب بالنفس .

أو أن هذا الأمر من قبيل الصغائر التى يبعد عنها الأنبياء ، فإنه تعجل الحكم وكان الواجب عليه أن يسمع الدعوى من الآخر ، ولا يقضى قبل ذلك . ومن قال بهذا الجواب قال : إن الفزع منهم أنساه التثبت والتحفظ ، وحملوا التحاكم على ضرب المثال ، وإلا فيلزم إقدام الملك على الكذب ، وحملوا النعاج على النسوة .

وننبه إلى أنه ليس فى القرآن أنه صدقه من غير ظهور الحجة ، إذ المراد إن كان الأمر كما ذكرت فقد ظلمك . أو أنه حكم بهذا الحكم (لقد ظلمك

بسؤال نعجتك إلى نعاجه) بعد سؤال المدعى عليه وإقراره بصحة الدعوى والقرآن لم يصرح بهذا لأن حذف ما يعلم جائز .

ومن الأجوبة التي ذكرها المفسرون: أن أوريا خطب امرأة ثم خطبها داود على خطبته ، فآثره أهلها فتزوجها ، فذنبه أنه خطبها على خطبة أخيه ، وهو وإن كان جائزاً في شرعه ، لكن مثل داود النبي ينبغي أن يترفع عنه ، وبخاصة أنه مستغن بمن عنده من نساء كثيرات ، فعوتب لهذا ، وهذا الرد من أحسن الردود ، إلا انه يحتاج إلى ما يثبت أنه خطب على خطبة أخيه .

ولعل أفضل هذه الردود جميعاً ، ما قاله أبو حيان أنه أساء الظن في أنهم جاءوا لاغتياله ، فسجد لله مستغفراً منيباً إليه ، فغفر الله له ذلك .

(٢) قول الله تعالى: (وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ، ففهمناها سليمان) . . الآية .

الاعتراض هو : لو كان داود مصيبا في حكمه لما خص الله سبحانه سليمان بقوله (ففهمناها سليمان) .

والجواب : تخصيص سليمان عليه السلام بالذكر لا يدل على أن داود بخلافه ، ثم إن داود عليه السلام كان عالما به . لكنه ما أفتى امتحانا لابنه سليمان ، رجاء أن يفتى به وتقر عينه بابنه ويعلو شأنه بين الناس ، وإنما أعرض عن ذكر داود للعلم باشتهاره بين الخلق بمعرفة الأحكام ، واقرأ قوله تعالى عقب الآية السابقة (وكلا آتينا حكما وعلما) .

سليمان عليه السلام :

وفيه قوله تعالى : (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً) الآية .

والفتنة : الابتلاء والاختبار والامتحان .

وقوله تعالى : (وألقينا على كرسيه جسدا) فالمحققون فيه على أقوال :

الأول : أن سليمان قال : لأطوفن الليلة على مائة إمرأة ، فتلد كل منهن غلاماً يقاتل فى سبيل الله ، ولم يقل إن شاء الله ، فطاف ولم تحمل إلا واحدة ، فولدت نصف غلام ، فجاءت به القابلة وألقته على كرسيه بين يديه ، ولو قال : إن شاء الله لكان كما قال . فالابتلاء لأجل ترك الاستثناء .

الثانى : أن الله امتحنه بمرض شديد حتى أشرف على الموت ، فصار كالجلد على العظم وجسداً بلا حراك ، من شدة ما به من الضعف ، والتقدير وألقيناه على كرسيه جسداً ، أو ألقينا جسده على كرسيه ـ فحذف للاختصار .

الثالث : ولد لسليمان ولد ، فاحتالت الشياطين فى قتله ، وقالوا : نخاف أن يعذبنا كما يعذبنا أبوه ، فأمر السحاب فحملته وأمر الريح فغذته ، خوفاً من الشياطين ، فمات الولد فألقى ميتا على سريره ، ابتلاء حين خاف الشياطين وركن إلى المخلوق .

أما مايذكره القصاص من حديث الخاتم وآصف ، فتلك حكاية باطلة ، لا يدل على صحتها أى أثر ، فلا يجوز الالتفات إليها .

يونس عليه السلام :

وفيه قوله تعالى : (وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) .

والكلام فى الآية من ثلاثة وجوه :

الوجه الأول : أنه ذهب مغاضبا ، وذلك محظور فإنه مأمور بالصبر فى التبليغ ، كما قال تعالى : (واصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت)

الوجه الثانى : قوله : (فظن أن لن نقدر عليه) يقتضى كونه ظانا فى قدرة الله تعالى :

الوجه الثالث : قوله : (إنى كنت من الظالمين) .

والجواب : أن قصة يونس عليه السلام كما وردت فى سورة الصافات : (وإن يونس لمن المرسلين ● إذ أبق إلى الفلك المشحون ● فساهم فكان من المدحضين ● فالتقمه الحوت وهو مليم ● فلولا أنه كان من المسبحين ● للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون ● فنبذناه بالعراء وهو سقيم ● وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ● وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ● فآمنوا فمتعناهم الى حين) .

وخلاصتها : أن الله أرسل يونس عليه السلام إلى أهل نينوى ، وأبوا أن يقبلوا دعوته ويذعنوا لرسالته ، ولما يئس منهم أنذرهم بعذاب الله ، وبين لهم العلامة على قدوم العذاب ، وهى أنهم قبل نزول العذاب بهم بثلاثة أيام تصفر وجوههم ثم تحمر ثم تسود ، ولما لم يلق منهم آذانا صاغية بعد هذا التحذير . ضاق صدره وخرج متجها الى البحر وركب سفينة توصله إلى مكان آخر بعيداً عن مكان الكفار ، وكادت السفينة تغرق ، وكان من معتادهم فى مثل هذه الأحوال أن يسهموا على أنفسهم وأيهم خرج سهمه ألقوه فى اليم ، وفعلوا وخرج سهم يونس ثلاث مرات ، فقالوا هذا هو العبد الآبق ، فألقوه فى البحر ، فالتقمه الحوت ، فأدرك يونس فعله وأنه خرج بدون إذن من الله تعالى ، فنادى فى الظلمات ولجأ إلى الله تعالى ، فاستجاب الله له ونجاه من كربه ، بفضل هذا الدعاء العظيم : (لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) .

وأنبت الله عليه شجرة من يقطين تقيه حر الشمس وبرد الليل ولدغ الحشرات ثم أرسله الله ثانية إلى أكثر من مائة ألف فى نفس البلد التى هاجر منها ، فوجدهم قد آمنوا لما رأوا علامات العذاب ، وتابوا عما هم عليه ، ورجعوا إلى الله ، بعد أن يئسوا من العثور على يونس ، فأخذوا فى الدعاء والاستغفار من ذنوبهم ، فلما علم الله صدقهم رفع عنهم العذاب .

أما الجواب عن الوجه الأول : فإن الآية لم تتحدث على أنه كان مغاضباً ربه ، وكيف يصح هذا ومغاضبة ربنا لا تجوز على أحد من آحاد المسلمين ؟ فضلا عن نبي مرسل ، إذن فهو خرج مغاضباً قومه .

أما قوله : (ولا تكن كصاحب الحوت) فليس لأنه ثقلت عليه أعباء النبوة لضيق صدره ، بل المراد أنه لم يصبر على تلك المحنة التى اختبره الله بها ولم يقو على تحملها ، ولو صبر لكان أفضل ، فأراد الله سبحانه بسيدنا محمد ﷺ أعلى المنازل .

وأما عن الوجه الثانى : فإنه لا نزاع أنه لا يجوز اتصاف الأنبياء بالشك فى قدرة الله تعالى ، إذ هو كفر والعياذ بالله ، بل المراد أن لن نضيق عليه بقوم لا يؤمنون ، وكان الأفضل أن يصبر على أذاهم وينتظر قضاء الله فيهم حتى يحكم الله بينه وبينهم . واستعمال (نقدر) بمعنى نضيق جاء فى القرآن ، وهو قوله تعالى : (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أى يوسع ويضيق ، ونحوها من الآيات .

وأما عن الوجه الثالث : فقد مضى الكلام عليه فى قصة آدم عليه السلام ، فى الشبهة الأولى ، الفقرة الثالثة . فارجع إليه هناك .

لوط عليه السلام :

وفيه قول الله تعالى على لسانه : (هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين) فقد عرض بالفاحشة مع بناته ، وتلك كبيرة .

والجواب : ما قاله الإمام الشافعى رحمه الله (الكلام يجمل فى غير مقصوده ويفصل فى مقصوده ، ولما كان غرضه ترجيح النساء على الغلمان لا جرم لم يتعرض لذكر النكاح ، وإن كان ذلك معتبراً فى نفس الأمر . والدليل على أن هذا الشرط كان معتبراً وجهان :

الأول : قال : (هن أطهر لكم) ولا طهارة فى الزنى .

الثانى : أنه لو دعا إلى الزنى لكان لهم أن يقولوا : الزنا واللواط حرامان على مذهبك ، فأى فائدة فى الدعوى من أحدهما إلى الآخر) ؟ اه الرازى .

سؤال : هب أن لوطاً دعاهم إلى الزواج من بناته ، فهل يجوز للكافر أن يتزوج من مسلمة ؟

والجواب :

١ — إن ذلك كان جائزاً عندهم ، وقد زوج النبى ﷺ ابنته السيدة زينب رضى الله عنها من أبى العاص بن الربيع وهو كافر ، وذلك قبل أن تنزل آية التحريم المذكورة فى سورة الممتحنة .

٢ — أو أنه يكفى فى الإضافة أدنى سبب ، والمراد من البنات بنات الأمة وأضافهن إلى نفسه لأن الرسل عليهم الصلاة والسلام كالآباء لأممهم .

٣ — أو أنه عليه السلام أراد موافقتهم وتسويفهم ، لأنه علم من

الملائكة أنهم سيهلكون عند الصبح ، وقد أخبر القرآن بذلك فى قوله تعالى : (وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) .

عيسى عليه السلام :

وجاء فيه قول الله تعالى : (وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ، قال سبحانك ، ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك) الآية .

وفيه : أن عيسى عليه السلام إن كان قال هذا الكلام فالإشكال قائم ، وإن كان على جهة الاستفهام فهو عبث . ثم إن ظاهر الآية يوهم التجسيم ، لأن النفس جسم . ولفظ (فى) الظرفية ، وهى لا تأتى إلا فى الأجسام .

والجواب : أنه عليه السلام ما قال ذلك ، ويحمل الاستفهام على أنه تقريع من ادعى ذلك من النصارى ، والنفس معناها الذات فى اللغة ، تقول : نفس الشىء وذاته . والظرفية هنا معناها قيام الصفة بالموصوف .

سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم :

الشبهة الأولى :

قال الله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته) .

فظاهر الآية الكريمة يدل على أن الشيطان أدخل فى القرآن ما ليس منه ،

وبذلك يرتفع الوثوق به ، وقد روى أن النبى ﷺ قرأ على الملأ من قريش « والنجم إذا هوى » حتى بلغ « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » فألقى الشيطان على لسانه « تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى » ، ففرحت بذلك قريش ، ثم مضى ﷺ فى قراءته حتى أتم السورة ، فسجد ﷺ وسجد معه المسلمون والمشركون جميعاً ، إلا الوليد بن المغيرة وأبا أحيحة سعيد ابن العاص ، حيث أخذا حفنة من التراب وسجدا على راحتيهما . فلما أمسى رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وقال : ماذا صنعت ؟ تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله ، فحزن صلى الله عليه وسلم حزناً شديداً ، وأنزل الله الآية .

والجواب :

أ — أن هذه القصة مرسلة فى كل طرقها ولم تأت من وجه صحيح — كما قال ابن كثير — وقد طعن الأئمة فيها وفى سندها :

قال ابن إسحاق : هى من وضع الزنادقة . وقال القاضى عياض : هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه أحد بسند متصل ، وإنما أولع به المفسرون والمؤرخون ، من يجرى منهم وراء كل غريب ويتلقف عن الصحف كل صحيح وسقيم .

ونقل عن ابن العربى : أن جميع ما ورد فى هذه القصة لا أصل له ، قال القاضى : والذى ورد فى الصحيح : أن النبى ﷺ قرأ « والنجم » ، وهو بمكة فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس » .

وقد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته ونزاهته عن هذه الرذيلة ، وعن مدحه آلهة غير الله لأنه كفر ، وعن تسلط الشيطان عليه حتى يجعل

فى القرآن ما ليس منه حتى ينبهه جبريل إلى ذلك ، وعن أن يقول ﷺ ذلك من قبل نفسه عمداً أو سهواً ، وذلك كله معصوم منه النبي عليه الصلاة والسلام وقد جاءت بذلك الأدلة والبراهين ، وقام عليه الإجماع .

قال الله تعالى : (ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين) وقال : (قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلى) وقال : (كذلك لنثبت به فؤادك) .

٢ — جاء التمنى فى اللغة بمعنيين : تمنى القلب والتلاوة .

ومما يستدل به على المعنى الثانى قول الله تعالى (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى) أى إلا قراءة — ومنه قول حسان فى رثاء عثمان بن عفان رضى الله عنهما وعن الصحابة أجمعين :

تمنى كتاب الله أول ليلة وآخرها لاقى حمام المقادر

والمراد من التمنى فى الآية القراءة ، ولا يمكن أن يكون المراد أن النبى عليه الصلاة والسلام إذا تمنى بقلبه بعض الأمور ووسوس له الشيطان بالباطل ، ثم ينسخه الله ويلفته إلى الحق .

وإذا قلنا : إن التمنى معناه القراءة والتلاوة ، يكون معنى الآية الكريمة ، أن الشيطان تكلم بكلام من تلقاء نفسه فى درج قراءة الرسول عليه الصلاة والسلام : ليظن أنه من جنس الكلام المسموع منه ﷺ ، وهو غير ممتنع ، لأنه لا خلاف أن الجن والشياطين متكلمون ، فلا يمتنع أن يسمع كلام الشيطان ، من غير رؤية صورته ، وحينئذ فلا يبعد أن يظن السامعون أن الكلام المسموع من الشخص المرئى أمامهم ، وهذا لا يقدح فى النبوة لأنه ليس من فعل النبي .

وإذا قيل : إن هذا يرفع الثقة عن شرع الله ، وعن نص كلامه .

قلنا إنه لو وقع لوجب فى الحكمة الإلهية أن يشرح لرسول الله الأمر ، كما فى هذه الواقعة حيث أزال اللبس .

٣ – جواب آخر : إن المتكلم بذلك بعض الكفار ، فقد عمد بعضهم إلى إلقاء تلك الكلمات فى أثناء قراءة الرسول ﷺ ، فقد كان من عاداتهم أنهم يلغطون عند قراءة القرآن ويوصى بعضهم البعض « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه » طلباً لتغليطه وإخفاء قراءته .

وقيل : إنه كان إذا تلا القرآن على قريش أو كان فى صلاة ، توقف فى فواصل الآيات ، فيلق بعضهم بالكلام واللغط ، قصد التشويش على الرسول ، فلما انتهى رسول الله ﷺ من قراءته إلى هذا المكان « ومناة الثالثة الأخرى » فذكر آلهتهم وقد علموا أن من عادته أنه يعيبها ، قال بعض الكفار « تلك الغرانيق العلا » . . فاشتبه على القوم أنه من قراءته عليه الصلاة والسلام .

وقد أضاف الله ذلك إلى الشيطان لأنه حصل بوسوسته ، أو لأنه جعل المتكلم شيطاناً (وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) .

٤ – ومما يدل على بطلان هذه القصة أن سياق الكلام لا يتفق مع هذه الكلمات الدخيلة ، إذ كيف يمدحها بكونها فى العلا وأن شفاعتها ترتجى ، ويقول عنها « إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) الآية إن هذا يقتضى الجمع بين المتناقضين ، وحاشا أن يكون القرآن كذلك (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) .

٥ – ثم إن كلمة « الغرانيق » لم ترد فى العربية ، ولم ينقل عن أحد أن تلك اللفظة جرت على لسان أهل اللغة ، وإنما ورد الغرنوق والغرنيق – وهو إسم طائر أسود أو أبيض ، أو اسم للشاب الأبيض الجميل ، وليس شيئاً من ذلك يلائم وصف الآلهة .

٦ – إن هذه القصة مردودة سنداً ومتناً – كما علمنا من هذا العرض – ونزيد أن الذى أدخلها على الإسلام يهودى ، ورواها عنه ابن سعد فى الطبقات والطبرى يرويها عن محمد بن كعب القرظى ، وقد ولد بعد وفاة النبى ﷺ ، ولم يجرؤ أحد أن يسندها لأحد من الصحابة البررة الكرام رضى الله عنهم .

الشبهة الثانيـة :

قال الله تعالى : (وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) .. الآية .

قالوا إن رسول الله ﷺ رأى زينب بنت جحش بعد ما تزوجها زيد ابن حارثة فأحبها ومال قلبه إليها ، فلما حضر زيد لطلاقها أخفى فى نفسه عزمه على التزوج منها بعد طلاقها ، فعاتبه الله على ذلك .

والجواب :

١ – أن زيد بن حارثة كان إبناً للرسول ﷺ بالتبنى ، وحرم الله التبنى كما كانت تعتقده الجاهلية من أن الإبن المتبنى كالإبن الصلب ، وكان ذلك فى سورة الأحزاب (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم) فكان يدعى زيد بن حارثة بدل زيد بن محمد ، وقد نزلت هذه السورة فى السنة الرابعة بعد الهجرة .

وقد مكثت زينب عند زيد ما يقرب من سنة ، ولما أراد الله لهذا الزواج أن

ينفصم ، لسوء العشرة بين الزوجين ولتعالى السيدة زينب على زيد بالحسب والنسب ، طلقها ثم تزوجها رسول الله ﷺ بعد ذلك ، وقد كان ذلك في السنة الخامسة على ما رجحه ابن كثير .

وكان هذا الزواج تشريعاً محكماً أنزله الله في كتابه ، ولم يكن وليد شهوة كما يدعي أعداء الإسلام ، قال تعالى : (لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولا) .

ولحكمة جليلة أراد الله تعالى أن يكون هذا التشريع على يد رسول الله ﷺ فهو القدوة المثلى للمسلمين ، وظاهرة مثل هذه قد تغلغلت جذورها في النفوس لا تهدم أصولها إلا من معول قوي شديد . وليس يقوى على هذا سوى المعلم الأعظم والمشرع الأول إمام المسلمين ، فهذا أدعى لقبولهم وأطوع لهم على ترك الزواج من مطلقة الابن المتبنى ، وعدم إعطائه من الحقوق ما هو ثابت للإبن من الصلب .

٢ - أن الله تعالى ذكر في القصة (ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له) وهذا تصريح بأنه لم يصدر عنه ذنب ألبتة ، بل كان لا بد من تنفيذ أمر الله وإمضائه ، (وكان أمر الله مفعولا) - ولو استعرضت مقالة القرآن في هذا الأمر ، فلن تجد ذنباً صدر عن الرسول ﷺ في هذه الواقعة ، ولا ذمه ولا عاتبه ، وما ذكر أنه عصى أو أخطأ ، أو استغفر من ذنب صدر عنه ، ولو كان شيء من هذا لذكره الله في كتابه ، ولما لم يكن شيء من ذلك ، دل على أن رسول الله ﷺ لم يخطيء ولم يقع منه ما يعاتب عليه ، بل كان منفذاً لأمر الله جل شأنه .

٣ - قول الله تعالى (وتخفي في نفسك ما الله مبديه) وهو زواجه عليه الصلاة والسلام من زينب بعد طلاقها من زيد ، وذلك بسبب حيائه الشديد

من زيد ومحبته له حيث كانت فى عصمته ، وقد أوحى الله إليه أنه سيطلقها وتصير زوجة له ، وبسبب تحرجه من مقالة الناس فيه ، ولكنه يعلم فى قرارة نفسه أنه قضاء الله ولا بد من نفاذه .

ويقول ابن العربى : « فإن قيل كيف يأمره بالتمسك بها وقد علم أن الفراق لا بد منه ، وهذا تناقض ؟ قلنا : بل هو صحيح المقاصد الصحيحة لإقامة الحجة ومعرفة العاقبة . ألا ترى أن الله يأمر العبد بالإيمان وقد علم أنه لا يؤمن !؟ فليس فى مخالفة متعلق الأمر لمتعلق العلم ما يمنع من الأمر به عقلا وحكما » اه. أحكام القرآن .

٤ — كان ﷺ يأمر زيداً بإمساك زينب ، ولما حضر طالباً من الرسول طلاقها أشفق من أنه لو طلقها لزمه الزواج منها ، فيصير بذلك سبباً لسوء قالة المنافقين واليهود ، فأخفى فى نفسه عزمه على نكاحها بعد طلاقه إياها ، فالخشية معناها الاستحياء وتعريض نفسه لسوء الكلام ، وقولهم تزوج من امرأة ابنه ، وهو ينهى عن تزوج حلائل الأبناء ؛ ومن هنا أمره الله ألا يلتفت إلى أحد من الناس ، مادام الشرع فى إصلاح المجتمع ، وإقامة علاقات أسرية صحيحة ، وهدم تقاليد جاهلية تضر بكيان المجتمع الإسلامى .

٥ — ثم إن الله تعالى هو الذى زوجه إياها . لقوله : (زوجناكها) ، ولو حصل فى ذلك سوء لكان قدحاً فى الله تعالى ، فثبت أن الأمر ليس للرسول فيه اختيار .

٦ — لقد كانت السيدة زينب بنت عمة الرسول عليه الصلاة والسلام ، شملها بعنايته قبل زواجها من زيد وكانت تقع تحت سمعه وبصره ، وهو الذى خطبها وزوجها لزيد ، مع امتناعها وامتناع أخيها وعصيانهما ، حتى نزل

القرآن فأطاعا مرغمين : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً) . ولو كان للشهوة أثر على قلبه الشريف ﷺ ، لكان أشد الأثر حينما كانت بكراً ذات بهاء ونضرة ، فكيف يعقل أن يمتد قلبه وبصره إليها بعد ما صارت زوجة لعبد أنعم عليه هو بالعتق وأنعم الله عليه بالإيمان ؟ وأين هذا من الخلق الرفيع لو نظر إلى امرأة رجل آخر نظرة شهوانية ذات عاطفة منحرفة عن الأخلاق التى جاء يدعو إليها عليه الصلاة والسلام ، أنظن أن الله رفع قدره ويعلى شأنه ويجعله فى درجة سيد الأنبياء لو أنه فعل هذا ؟ (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر) . (وإنك لعلى خلق عظيم) ... (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى) حاشاه ﷺ أن تكون أخلاقه منافية لكريم الصفات التى دعا إليها ، وجاء بها القرآن والسنة .

٧ — سؤال : قول الله تعالى : (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) يدل على أن الإخفاء ما كان جائزاً له .

والجواب : (أنه ﷺ أخفى ذلك اتقاء لسوء كلام المنافقين وغيرهم — على ما علمنا — ومع ذلك فلو أنه تحمل سوء مقالتهم وأظهر الأمر ، لكان أكثر ثوابا فيه ، فيرجع حاصله إلى ترك الأولى والأفضل ، وليس ذلك من الذنب فى شىء .

فأما الذين يذكرون أنه عشقها فهو من باب الآحاد والأولى تنزيه منصب الأنبياء عن مثله ، لا سيما والقرآن لا يدل عليه ألبتة) اه . عن الفخر الرازى .

الشبهة الثالثة :

قال الله تعالى : (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم * لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم * فكلوا مما غنمتم حلالا طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم) .

ففى هذه الآيات : ما يقتضى أن يكون استبقاء الأسرى محرماً (ما كان لنبي أن يكون له أسرى) . وفيها أن الله ذمهم (تريدون عرض الدنيا) ، (لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) .

والجواب :

١ — أن الله تعالى : إما أن يكون أوحى إليه بجواز الأسر أولا ، فإن كان الأول فلا يجوز له ﷺ أن يستشير أصحابه . لأنه لا يجوز الاشتغال بالاستشارة مع قيام النص وظهور الوحى ، وإن لم يكن أوحى إليه بشىء لم يجز أن يتوجه إليه ذنب مطلقاً .

٢ — ثم إن حكم الرسول عليه الصلاة والسلام لو كان خطأ ، لما أقره الله عليه ولأمره بنقضه ، بأن يقتل الأسرى ويرد ما أخذ من الفداء ، ولما لم يكن شىء من ذلك ، بل قال الله : (فكلوا مما غنمتم حلالا طيباً) علمنا أنه لم يوجد خطأ فى حكمه ﷺ .

٣ — إنه عليه الصلاة والسلام لم يشتغل بالاستغفار والندم ، وذلك يدل على عدم الذنب مطلقاً .

٤ — إن العتاب كما يكون على ترك الواجب ، يكون على ترك المندوب ،

وعلى ترك الأولى كذلك . وقد كان الأولى فى ذلك الوقت القتل وترك الفداء قطعا للأطماع وحسما للنزاع ، ولولا أن ذلك من باب ترك الأولى لما فوض النبى ﷺ لأصحابه ذلك .

٥ ـ وقوله تعالى : (تريدون عرض الدنيا) خطاب للجميع ، فيصرف إلى الأصحاب الذين رغبوا فى المال ،

٦ ـ وقوله : (لولا كتاب من الله سبق) معناه : لولا ما سبق من تحليل الغنائم لعذبهم بسبب أخذهم الفداء . وهذا تقريع لهم حيث أخذوه بدون أمر من الله سبق ، فهو من سوء تدبيرهم .

وإنما قرعهم سبحانه مع كونه حلالا لهم ، لأن ذلك فى حال الحرب ، وما كان من هـذا الباب فقد يقع الخطأ فيه من جهة التدبير ، ويقرع المخطىء وإن كان غير مذنب .

الشبهة الرابعـة :

قال الله تعالى : (عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) .

وذلك حينما استأذنه قوم فى التخلف عن الخروج للجهاد فأذن لهم . فقال الله له ذلك ـ والعفو لا يكون إلا بعد صدور ذنب ، ثم إن العفو يقتضى ترك المؤاخذة . وقوله : (لم أذنت) مؤاخذة ، فالكلام متناقض فى الظاهر .

والجواب : أن الله تعالى أراد التلطف فى الخطاب مع حبيبه ﷺ ، وهذا كما لو قلت : أنت رحمك الله ، واسمع كلامى غفر الله لك ، وإن لم يكن هناك ذنب البتة .

وأيضا فهذا من باب التدبير فى الحرب، وقد علمنا أن تارك الأولى والأفضل يعاتب وينبه على هذا الترك .

الشبهة الخامسة :

قال تعالى : (ووضعنا عنك وزرك * الذى أنقض ظهرك) وهى صريحة فى ارتكاب الذنب .

والجواب : أن المراد ما كان من صغيرة أو من ترك الأولى .

ثم إن الوزر لغة : الثقل ، قال تعالى : (حتى تضع الحرب أوزارها) أى أثقالها . وسمى الذنب بالوزر لأنه يثقل على فاعله .

فعلى هذا فإن تسمية الذنب بالوزر مجاز آخر ، وهو أنه ﷺ كان فى غم وحزن شديد ، لإصرار قومه على الشرك . وقد كان هو وأصحابه مستضعفين ، فلما علت كلمة الله وعظم أمر الإسلام ، وارتفع شأن الرسول وصحابته ، فقد وضع الله عنه وزره ، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى فى بقية السورة (ورفعنا لك ذكرك * فإن مع العسر يسراً * إن مع العسر يسرا) فإن العسر بالشدائد والهموم أشبه ، واليسر بإزالة هذه الشدائد والهموم أشبه .

وهذه السورة وإن كانت مكية ، إلا أن وعد الله حق ، وقد وعده سبحانه بذلك فى مكة ، فقد قوى قلبه وزال كربه .

وقد قال سبحانه فى سورة الروم وهى مكية (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) .

الشبهة السادسة :

قال تعالى : (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما) وهذا تصريح بالمغفرة من الذنب .

والجواب :

١ – أنه محمول على الصغائر .

٢ – أو من باب ترك الأولى فقد يسمى ذنبا ، كما يقال : حسنات الأبرار سيئات المقربين .

٣ – أو أن الذنب مصدر وهو يجوز إضافته إلى الفاعل والمفعول ، فكأن المراد : ليغفر لأجلك وبركتك ما تقدم من ذنبهم فى حقك وما تأخر والمغفرة على هذا هى الإزالة والنسخ لأحكام أعدائه المشركين ، فى منعهم إياه من مكة وصدهم له عن المسجد الحرام – وهذا التأويل يوافق ظاهر الكلام حتى تكون المغفرة غرضا فى الفتح ووجها له ، وإلا فلو كانت المغفرة موجهة إليه ﷺ ، لم يكن لقوله (إنا فتحنا لك فتحا مبينا • ليغفر لك الله) لم يكن لها معنى معقول ، لأن مغفرة الذنوب لا تعلق لها بالفتح وليست غرضا فيه .

٤ – أو أن الكلام محمول على الشرط ، أى لو كان لك ذنب لغفرته لك ، وإخراج القضية الجازمة إلى الشرطية جائز إذا دل عليه سياق الكلام ، وبذلك يكون الغرض من الآية علو درجة الرسول عليه الصلاة والسلام .

الشبهة السابعة :

قال تعالى (عبس وتولى • أن جاءه الأعمى • وما يدريك لعله يزكى •

أو يذكر فتنفعه الذكرى * أما من استغنى * فأنت له تصدى * وما عليك الا يزكى) الآيات . وفيها عتاب من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم لإعراضه عن ابن أم مكتوم .

والجواب :

١ - لا نسلم أن الخطاب متوجه إلى رسول الله ﷺ ، فإن قول المفسرين فى هذا مستنده رواية آحاد ، فلا تقبل .

٢ - ثم إن هذا التفسير يعارضه أنه ليس من صفات الرسول العبوس ، ولم ينقل فى خبر صحيح ذلك ، فما ثبت أنه عبس مع الأعداء فضلا عن المؤمنين وكذلك وصفه بالتصدى للأغنياء والتلهى عن الفقراء ، ولا يليق أن يقال له : (وما عليك ألا يزكى) فإن الرسول كان حريصاً على إيمان قومه ، ولقد قال الله له (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) وقال (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين) . وأيضاً فكيف يزجر الله حبيبه بهذا اللفظ (كلا) .

٣ - سلمنا أن الخطاب متوجه إلى الرسول ﷺ ، لكنه ليس ذنباً ، فقد وصف الله نبيه بحسن الخلق ، فقال (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) . (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) . (وإنك لعلى خلق عظيم) فلو ظهر منه فى القليل النادر خلاف ذلك ، عاتبه ربه عليه ، فيكون ذلك من باب ترك الأولى .

٤ - ثم إن السبب فى ذلك كما جاء فى الخبر : أن الرسول كان يتحدث مع أشراف قريش ويستميلهم إلى الإسلام . رجاء أن يعز بهم الإسلام ، فحضره ابن أم مكتوم ، وهو أعمى لا يعرف كيفية الحال ، فسأل عن مسألة فى خلال

مكالمة النبي عليه الصلاة والسلام هؤلاء القوم ، فاشتد ذلك عليه ، لأنه كان قطعاً للكلام وإفساداً لمحاولته إسلام بعض القوم ، فأعرض عنه ، فنهاه الله عن ذلك وأمره بالإقبال عليه وعلى أمثاله ، وألا يفاضل بين غنى وفقير وشريف ووضيع ، وألا يخص بدعوته أحداً دون أحد ، فوظيفته البلاغ إلى الكل ، ولا يؤاخذ بامتناع من امتنع عن قبول دعوته .

الشبهة الثامنة :

قال الله تعالى : (سنقرئك فلا تنسى ، إلا ما شاء الله) .

فإن الاستثناء يدل على جواز النسيان فى وحى الله تعالى .

والجواب : أن النسيان يأتى بمعنى الترك ، قال تعالى :

(فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا) والمعنى على هذا : سنقرئك فلا تترك منها شيئاً ، إلا ما شاء الله ، وهو المندوب أو المنسوخ ـ اهـ عن الفخر الرازى .

قال مجاهد والكلبى : «كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحى ، لم يفرغ من جبريل من آخر الآية حتى يتكلم النبي ﷺ بأولها ، مخافة أن ينساها ، فنزلت (سنقرئك فلا تنسى) .

ويقول الشوكانى فى الاستثناء «أى لا تنسى مما تقرؤه من الأشياء إلا ما شاء الله أن تنساه .

قال الفراء : وهو لم يشأ سبحانه أن ينسى محمد صلوات الله وسلامه عليه شيئاً ، كقوله (خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك) وقيل : إلا ما شاء الله أن تنسى ثم تذكر بعد ذلك ، فإذن قد نسى ولكنه

يتذكر ، ولا ينسى شيئاً نسياناً كلياً . وقيل : بمعنى النسخ ، أى إلا ما شاء الله أن ينسخه مما نسخ تلاوته .

وقيل : فلا تنسى : فلا تترك العمل إلا ما شاء الله أن تتركه لنسخه ورفع حكمه) .. إلخ ما ذكره .

الشبهة التاسعة :

قال تعالى : (واستغفر لذنبك) وجاء فى الحديث « إنى لأستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة » .

وهذا صريح فى صدور الذنب عنه .

والجواب : أن هذا محمول على الصغيرة . أو ترك الأولى . أو تواضعاً منه ﷺ . أو على التقدير ، بمعنى إذا أذنبت فاستغفر الله – وهو كقوله تعالى (يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا) فهو يحثهم على التوبة جميعاً إذا حصل منهم ذنب .

الشبهه العاشرة :

قال تعالى : (ووجدك ضالا فهدى) .

وهى صريحة فى إثبات الضلال له ﷺ .

والجواب : أن الضلال هو الذهاب والانصراف فى اللغة ، والمنصرف عنه غير مذكور فى الآية ، فمن الخير أن يفسر بما يوافق الدليل الذى يدل على عصمة النبي ﷺ . وهو أحد أمور أربعة :

١ – وجدك ضالا عن النبوة فهداك إليها ، وهذا ما يؤيده قول الله

تعالى (ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان) فالضلال بمعنى التحير ، لأن الضال متحير .

٢ — وجدك ضالا عن المعيشة وطريق الكسب . فهداك إليه .

٣ — وجدك ضالا . فى زمن الصبى فى بعض المفاوز ، فردك لجدك .

٤ — وجدك ضالا — أى مضلولا عنك — فى قوم لا يعرفون حقك ، فهداهم الله إلى معرفتك — كما تقول : فلان ضالة قومه ، ووجدت ضالتى — أى المضلول عنه . والمضلولة عنى .

ولعل أولى هذه التفاسير الأول ، وهو ما تؤيده الآية الأخرى ، وقريب من هذا القول : أن الرسول كان ضالا عن تفصيل الدين الحق ، وعن معالم الإيمان والشريعة ، فهداه الله إلى الفرائض والأحكام وتفصيلات الشريعة السمحة .

وقد جاء فى كتب التفسير : أنه ﷺ كان يتعبد على دين إبراهيم الخليل عليه السلام ، قبل أن يأتيه الوحى وينبأ ، وقيل : على شرع من قبله ، أى على دين عيسى عليه السلام .

والذى نعتقده أنه كان مؤمناً بالله ولم يسجد لصنم ولا زنى ولا شرب الخمر ولا شهد مجالس سمر ، ولا غير ذلك مما لا يقره عقل سليم . اهـ عن القرطبى فى سورة الشورى سورة والضحى بتصرف .

كلمة الختام

هذه هى الموضوعات التى قصدنا إلى بيانها وتوضيحها ، بقدر الإمكان ، وقد حاولنا فيها أن نبين الوزن الحقيق لهذا التفسير ، والقيمة العلمية التى يهدف إليها الدارس ، الذى يريد أن يخوض محيط القرآن الكريم ، حتى يبرز للناس هدايته فى أيسر أسلوب وأوضح عبارة ، ويقرب كتاب الله إلى قلوب المؤمنين المسترشدين بأقصر سبيل وأوضح طريق .

ولا شك أننا نعيش فى عصر كثرت فيه الثقافات المختلفة ، وأكثرها منقول عن علماء الغرب ، أو عن بعض علماء الشرق الذين درسوا علوم الغرب وشربوا من مشاربهم ، هؤلاء الذين يحاولون إلقاء الشبه والأباطيل فى أذهان العامة من المسلمين ليحجبوا عنهم نور هذا القرآن الكريم ، وهم كما قال الله عز وجل : (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) .

أسأل الله أن يوجه علماءنا إلى العناية بهذا النوع من التفسير ليعلم الناس فى مشارق الأرض ومغاربها مصداق قوله تعالى : (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) .

والله أسأل أن يهدينا سبيل السداد والرشاد ، وأن يلهمنا الفهم لمعانى كتابه الكريم وسنة نبيه المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، وأنه

يوفقنا للقيام بخدمتهما والعمل بما فيهما وأن يجعلنا ممن يكون كتابهم شفيعا لهم وأن يتفضل علينا بنعمة الرضا وشرف القبول .

إنه تعالى أكرم مسئول وخير مأمول . وله الحمد فى الأولى والآخرة وهو السميع البصير وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وصلى الله على سيدنا محمد خير الأنام وخاتم الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام .

المراجـــع

١ - تفسير الطبرى بتحقيق الشيخ شاكر .
٢ - تفسير ابن كثير .
٣ - الكشاف الزمخشرى .
٤ - تفسير الفخر الرازى .
٥ - تفسير القرطبى .
٦ - تفسير أبى السعود العمادى .
٧ - تفسير النيسابورى .
٨ - تفسير الألوسى
٩ - تفسير المنار .
١٠- فتح القدير للشوكانى .
١١- أحكام القرآن لابن العربى .
١٢- عصمة الأنبياء للفخر الرازى .
١٣- نيل الأوطار للشوكانى .
١٤- الإتقان للسيوطى .
١٥- البرهان للزركشى .
١٦- لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى .
١٧- الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم .
١٨- الإعجاز البيانى فى ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره
محمد القاسم

ملاحظة:

١ — كتب فضيلة الأستاذ الدكتور أحمد السيد الكومى:

من ص ٣ إلى ص ٤٤

ومن ص ٦٥ الى ص ٧٩

٢ — وكتب الدكتور محمد أحمد يوسف القاسم:

من ص ٤٥ إلى ص ٦٤

ومن ص ٨٠ إلى آخر الكتاب

الفهرس

الموضوع	الصفحة

والحمد لله رب العالمين